الفصل الثالث

إحباط يهود الشتات وفشل المشروع الصهيونى فى رواية
(رواية روسية) لـ"مئير شاليف"

obeikandl.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

obeikandl.com

رواية روسية

جاءت رواية (رواية روسية)• لمئير شاليف لكى تؤكد على أن الآباء المؤسسين للصهيونية زرعوا الوهم فى نفوس يهود الشتات وزينوا لـهم الأحلام الزائفة والشعارات الجوفاء التى روجوا لـها، والتى سرعان ما تهاوت عند أول صدام للأجيال التالية بالواقع. وقد تعامل شاليف فى معرض نقده للصهيونية فى هـذه الرواية مع الواقع، وأثبت فشل هذه الحركة فى تحقيق كل الآمال اليهودية. ولم يأت نقده هذا من أجل التقويم، لأن هذا ليس هو دور الأدب عادة، بل جاء ليسجل وقائع الإحباط الذريع الذى أصاب جموع اليهود من الأجيال المتعاقبة من ناحية، وليؤكد أن فرضيات هذه الأيديولوجية كانت مضللة وخادعة ولا أساس لـها من ناحية أخرى، لاسيما أن شاليف يعد من أبرز الأدباء الإسرائيليين الذين ينتمون إلى (الجيل الواعى••) " هادور همفوكاح "، وهو الجيل الذى تشكلت ملامحه فى السبعينيات بعد حرب أكتوبر 1973، واتسم أدباؤه بالكتابة فى موضوعات تتصل بالواقع الإسرائيلى المعاش، رافضين الـهروب من مواجهة الواقع مهما كان مؤلماً ومحبطاً، وثائرين ضد تفانى الأجيال الأدبية السابقة فى تناول موضوعات الأحلام القومية متناسين الواقع الحقيقى.

وقد وصف النقاد الإسرائيليون هذه الرواية، بأنها أول رواية عبرية معادية للصهيونية فى الأدب العبرى الإسرائيلى، حيث نظر إليها الناقد الإسرائيلى يوسف أورن على " أنها رواية على عكس كل الروايات السابقة التى اهتمت بنقد الصهيونية، فهى لم تكتف بالكشف عن مواطن ضعف الصهيونية فى المرحلة الحالية من تحقيقها، فى الحاضر، بل إنها تؤكد، أنه منذ البداية كانت نظرياتها خاطئة وباطلة. فبينما أعطت كل الروايات السابقة لأبناء الجيل الحالى حجة ليعلنوا شكواهم تجاه الصهيونية، فقد تجاوزت (رواية روسية) كل هذا، وأرجعت انهيار الصهيونية لكونها (أسطورة) مرهونة بالمؤسسين أنفسهم ؛ لأنهم هم الذين بدأوا هذا المشروع ووثقوا فيه حتى يئسوا منه. ومن خـلال دحـض النظـريات الأساسـية للصهيونية، ترفض الرواية هذه الأيديولوجية " (□).

(•) مئير شـــاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، دار نشر عم عوفيد، تل أبيب، 1989، (394 صفحة).

(••) من أبرز الأدباء الإسرائيليين الذين ينتمون إلى هذا الجيل أيضا: ديفيد شيتس (1941)، اسحاق بن نير (1937)، حاييم بئير (1945)، ايتمار ليفى (1956 –)، (دافيد جروسمان (1954)، ويعقوب شبتاى (1934).

(□) يوسف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص69ـ70).

وتدور أحداث هذه الروايـة حول تلك الأيديولوجية التى بنيت على أسطورة زائفة، روج لـها الآبـاء اليهود المؤسسون ؛ حتى صدقوها ؛ وتصوروا أنها ستتحول إلى واقع وحقيقة، ولم يدفع ثمن هذه " الأسطورة " إلا هم وأحفادهم الذين فشلوا فى إعدادهم كورثة من بعدهم، لتتحول الأسطورة إلى نيران كانوا هم أول من احترق بها، وإلى فشل المشروع الصهيونى وإحباطه وتحطمه بأكملـه.

وتقول " يونا باحور" الناقدة الإسرائيلية فى معرض حديثها عن هذه الــرواية: "إنها رواية تعطى انطباعاً بأنها أكثر من رواية. إن البناء الأدبى لـها يفجر عناصر الزمان والمكان، إنها لم تختص فقط بالأوائل والرواد، بل شملت الإنسان والأرض، الدم والأرض، والطبيعية، والصبى، والشهوة الجنسية، والشيخوخة، ودوائر الحياة المتشعبة، والحماس الكبير الذى هزّ المستوطنين الأوائل الذين تناسلوا من الأرض القديمة " [1]. وتمضى قائلة: " إنها قصة صادقة لثلاثة أجيال يعيشون فى وادى(يزراعيـل) ولم تكن (رواية روسية) رواية، بل هى كرنفال حديدى للأشياء وعكسها، الحب والكراهية، القيم وغيابها، الغرائز والإيمان بالنبوءة، وفى مقابل كل هذا العكس التام الدمار والكفر والانحلال " [2].

أما الناقد الإسرائيلى " يديديا يتسحاقي " فيقول: " إنها رواية تواجه (عالم الأساطير الخاص ببداية الاستيطان)، أو لنقل، إنها تتحدث عن (الأساطير) الموجودة فى حياتنا منذ عشرات السنين حول البطولة فوق الإنسانية لرواد الـهجرة والاستيطان والدفاع. إن المشكلة المرتبطة بـ (الأسطورة) هى أن أبناء الجيل الثانى والثالث لا يستطيعون مواجهة صورة الأوائل دون إلغاء أنفسهم وأعمالـهم الصغيرة والبسيطة.. وقد أخذ مشروع الأوائل فى الدمار عندما ترك دون الاستمرار فيه، وقد أدى احتضان الأسطورة كما تصورها (رواية روسية) إلى ذلك، حيث تحولت البسـاتين الحياتية إلى (مقبرة للـرواد) أو إلـى أرشيف يمتلئ بالأوراق المكدسة " [3].

ولعل "يتسحاقى" يشير هنا إلى فكرة التضارب بين الأسطورة والتاريخ فى المفهوم التاريخى لليهود، ومدى انعكاس ذلك على الرؤية الصهيونية لكل من الأسطورة والتاريخ، حيث انتهجت الصهيونية مبدأ الأسطورة لتعضيد وجودها، كما ذهب شاليف فى هذه الرواية، لاسيما " وقد تبين أن الأساطير والخرافات بعوالمها الغريبة وأشخاصها القذرة منفصلة تماماً عن عالمنا الزمنى، حتى ولو كانت ذات تأثير دائم فى الحياة العامة وفى

([1]) يونا باحور: " رشيموت عل هاسفروت " (انطباعات حول الأدب)، دار نشر يارون جولان، تل أبيب، 1993 (ص65).

([2]) نفس المرجع، (ص66).

([3]) يديديا يتسحاقى: " ميتولوجيا شل هاميتوس " (ميثيولوجيا الأسطورة)، مجلة "عيتون شيفعيم فشيفع)، إسرائيل، العدد 105، أكتوبر 1988، (ص 13).

السلوك النفسى ... إنها قصص خيالية صرفة وتبعد عن التاريخ بمقدار ما يبعد الوهم عن الحقيقة، و من ثم كان منطقها هو اللا منطق " (1).

أما " هليل فايس " فيقول فى معرض تناولـه لـهذه الرواية : " ذهب بعض النقاد إلى أن هذه الرواية هى محاكاة رخيصة لمائة عام من العزلة، فهناك من رفضها كنتاج من نتاجات الرثاء على نهاية المشروع الصهيونى، وهنـاك من نظر إليها كعمل يدنس ذكرى الآباء الأوائل، الذين يظهرون فى هذه الرواية كمجموعة من المهرجين الخبثاء أو الاشرار المنحرفين، أضاعت الحماسة من أجل فلسطين الجزء المتبقى من عقلـهم، وهناك من فزع من جرأتها. ولكنها، من وجهة نظرى، هى رواية وعمل كبير. . إنها رواية لفيلسوف ساخر. رواية علمانية حقيقية، حرة فى روحها، دون كراهية لشيء فى هذا العالم، . . إنها قصة للموت والحب، تدقق فى غيبوبة الحياة وتفحصـها. إنها رواية سليمة العقل وسط كرنفال من الجنون " (2).

أما بالنسبة لتسمية الرواية بـ " رواية روسية " فيقول " فايس " : " إن المؤلف يعرض أمامنا مجموعة من الرواد تبدو فى بداية تكوينها كشيء واقع تحت مجتمع يواجه مآسي الانسلاخ عن الوطن الروسى واللقاء الوحشى مع ذئاب هذه الأرض" (3).

وربما ترجع تسمية الرواية، إلى قصة الجد "ميرقين" فى الحبكة الروائية حيث هاجر من روسيا بعد قصة حب فاشلة مع محبوبته " شولاميت "، وتحدثت الرواية أيضاً عن قصص مماثلة كان أبطالـها من مهاجرى روسيا، علاوة على أن رواد الاستيطان الصهيوني على أرض فلسطين، فى الرواية، كان أغلبهم من مهاجرى روسيا.

قصة الرواية (عرض مختصر) :

تحكى هذه الرواية قصة بعض المؤسسيين من الصهيونيين الأوائل الذين أخذوا على عاتقهم مسألة تحقيق الحلم الصهيونى، والصعوبات التى واجهتهم فور وصولـهم إلى فلسطين التى حلموا بها ليكتشفوا فى نهاية الأمر أنها أسطورة من الأساطير الصهيونية تحطمت على أرض الواقع، ليلقوا جميعاً حتفهم تحت وطأة المرض والفشل وتحطم الحلم والنبوءة، ويدفن الجميع فى هذه الأرض التى تحولت إلى (مقبرة للرواد).

---

(1) أحمد كمال زكى : الأساطير، الـهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002، (ص 53).

(2) هليل فايس : " عليلاه، سفروت هاكلايون هايسرائيليت "(الحبكة، أدب الـهلاك الإسرائيلى)، دار نشر بيت أيل، إسرائيل، 1992، (ص119ـ120).

(•) هذا التشبيه دأب الأدباء العبريون إطلاقه على أهل البلاد الفلسطينيين فى المراحل الأولى من الاستيطان الصهيوني.

(3) نفس المرجع (ص120).

وتخرج هذه الرواية عن الإطار المألوف للروايات من حيث التسلسل فى السرد والأحداث، لتصبح فى النهاية مجموعة من القصص المتفرقة والمختلفة مر بها ثلاثة أجيال ـ جيل الأباء، وجيل الأبناء، وجيل الأحفاد ـ إلا أن جميعها تصب فى هدف واحد، وهو تحطم الآمال مع بداية الاستيطان الصهيونى على أرض فلسطين. وتمثل أيضاً هذه الأجيال الثلاثة مراحل اعتناق المشروع الصهيونى وسبل تنفيذه، ويشير فشل الأسرة بأجيالـها الثلاثة إلى فشل الصهيونية.

ويقوم بدور القاص فى الرواية " باروخ شنهار "، وهو من جيل الأحفاد، وهو يأتى بهذه القصص والذكريات من خلال ما سمعه منذ أن كان طفلاً من جده "ميرقين"، ومعلمه" بيناس " وفيها يحاول " شاليف " أن يبين لنا الواقع المرير الذى واجهه هؤلاء الصهيونيون الرواد عبر قصص الحب الفاشلة، وتمهيد الأرض وإعدادها ثم تحولـها إلى " مقبرة للرواد "، وفشل هؤلاء فى تحقيق الحلم، والموت المأساوي لجيل الأجداد والأبناء، وفشل الصهيونية فى إعداد الأحفاد كورثة لجيل المؤسسين، ليعطى لنا فى النهاية، على الرغم من فقدان الرواية لتسلسل الزمان والمكان، منظومة متكاملة تعبر عن عالم من الأساطير حول الأرض التى تدر لبناً وعسـلاً وادعاء الحق اليهودى عليها، وهو عالم نسجته الصهيونية لتلفت أنظار يهود الشتات، ولكن هذا العالم ما لبث أن تحطم على أرض الواقع، كما ذهب شاليف فى هذه الرواية.

اتجاهات نقد الصهيونية فى الرواية:

كانت الصهيونية فى أطوارها الأولى فى حاجة ماسة للفت أنظار يهود الشتات، باعتبارهم المستهدفين الأساسيين لتحقيق حلم الصهيونية بتجميعهم فى فلسطين، إلى أهدافها وحثهم على تحقيقها، وقد روجت للعديد من النظريات والأساطير بين يهود الشتات، وحاولت من خلالـها مداعبة أحاسيسهم فى شتى أنحاء البلاد، واستخدمت من بين ما استخدمت أسطورة الوعد الإلـهى لليهود فى أرض فلسطين، وتاريخية علاقة اليهود بهذه الأرض التى تدر لبناً وعسلاً، ونظرية العودة إلى الطبيعية بعودة يهود الشتات، وغير ذلك من النظريات والفرضيات التى كان هدفها الأول هو دفعهم للـهجرة والاستيطان فى أرض فلسطين وإنشاء دولة لليهود.

ولأن النظرية شىء والواقع شىء آخر، فإن تلك النظريات والأساطير المختلفة سرعان ما تهاوت حين اصـــطدمت بأرض الواقع مع دخـولـها إلى حيز التنفيذ. وهنا فنّد لنا " شاليف " تلك النظريات الصهيونية ووصفها بـأنها أساطير. " ولذلك فقد عد مئير شاليف فى روايته (رواية روسية) أكثر الأدباء الإسرائيليين تطرفاً ضد الصهيونية ؛ لأنه لم يحصر فقط مثل الآخرين مواطن ضعف الصهيونية فى الحاضر، بل عرض فرضياتها الأساسية

كفرضيات خاطئة فى أساسها، ووصفها بأنها (أسطورة)، ولم تكن أبداً حقائق صحيحة " (1).

ومن الأهمية هنا، ونحن بصدد التعرض لفرضيات الآيديولوجية الصهيونية التى تعامل معها " شاليف " ووصفها بالأسطورة، أن نتعرف أولاً على ماهية الأسطورة ومعناها، وبخاصة فى التراث الدينى اليهودى.

وبداية، " يشير مصطلح Myth إلى الأسطورة المتصلة بالآلـهة وأنصاف الآلـهة والأبطال الخرافيين عند شـعب ما، كما يشـير مصطلح Legend إلى الأسطورة الشعبية بشكل خا" (2). كما " يشير المصطلح العبرى" ليجندا " إلى سرد قصصى لايمكن اسناده إلى مؤلف معين يتضمن بعض المواد التاريخية إلى جانب مواد خرافية شعبية " (3).

" وفى معاجم أدبية أخرى يعرف مصطلح "ميتوس" بأنه إشارة إلى إعداد أدبى للظواهر الطبيعية وقصص تتناول الآلـهة وحروبها، وقصص الأبطال الخارقين وآثار الحوادث التاريخية التى طمسها الزمن. وتنتمى الأساطير من هذا النوع لجماعات عرقية أو طوائف دينية ولكنها لا تنتمى إلى مؤلف بعينه " (4).

ويقول أحمد كمال زكى فى تعريفه للأسطورة: ". . والأعجب أن معالمنا اللغوية تقف عاجزة عن إعطاء المدلولات الحقيقية لكلمتى خرافة وأسطورة، فالأساطير هى (الأحاديث التى لا نظام لـها) وهى (الأباطيل والأحاديث العجيبة) و(سطر تسطيرا) ألف وأتى بالأساطير، والأسطورة (الحديث الذى لا أصل لـه). وقد استعمل القرآن الكريم لفظة (الأساطير) بالذات فيما لا أصل لـه من أحاديث فقال ﴿ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ – (سورة الأنفال: آية 31) – أى مما سطروا من أعاجيب الأحاديث وكذبها، وقال أيضاً ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ ـ (سورة الفرقان: آيـة 5) ـ أى طلب الرسول كتابتها فأملاها عليه جبريل صباح مساء. أما الخرافة فهى خرف خرفا، أى فسد عقلـه، والخرافة بفتح الخاء حديث الخرف الضحك، وبضمها رجل من غدرة استـهرته الجن، فكـان يحـكى ما رأى فكـذبوه ... ولم يستعمل كـتاب اللـه هذه الكلمة قط " (5).

---

(1) يوسف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص21).

(2) منير بعلبكى: قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ط17، (ص602).

(3) د. سعيد عبد السلام: دراسة معجمية لمصطلحات الأدب، كلية الآداب ـجامعة عين شمس، 1997، (ص323).

(4) عزرائيل أوخمانى: " ليكسيكون موناحيم سفروتييم "(قاموس المصطلحات الأدبية)، دار نشر هاكيبوتس همئوحاد، الجزء الثانى، إسرائيل، 1976، (ص53ـ54).

(5) أحمد كمال زكى: الأساطير، مرجع سابق، (ص 36ـ37).

" ويقسم بعض المفكرين الأساطير من الناحية التصنيفية إلى عدة أنواع مثل الأساطير الطقوسية: وهى التى تتناول طقوس العبادة، والأساطير التعليلية: وهى التى حاول الإنسان البدائى عن طريقها تعليل ظواهر الكون، والأساطير التاريخية: وهى التى تتناول واقعا تاريخيا ممعنا فى القدم وتتعلق بمكان أو أشخاص حقيقيين، وأساطير الخلق: وهى التى تفسر خلق العـالم، والأساطير الرمزية: وهى التى تعـبر بطريقة مجازية عن فكرة دينية أو كونية " (1).

وحول الأسطورة فى التراث الدينى اليهودى يقول " عيلى ياسيف ": " تشيع الأسطورة بأسلوبها الشعبى الخاص فى المقرا من خلال صورتين مختلفتين، هما: وصف الآلـهة وصراعها ضد القوى المختلفة وعلاقتها بالجنس البشرى، والصورة الثانية هى الأسطورة القصصـية التى تصـف الظـواهر المختـلفة فى عالمنا، وهى ما تسمى (بالأسطورة السببية) " (2).

ويفرق " ياسيف " بين الأسطورة والـهاجاداه. فهو ينظر إلى الـهاجاداه على أنها من أهم أنواع الأساطير من حيث الانتشار والأهمية فى المقرا حيث يقول: " الـهاجاداه هى قصة شعب فى فترة تاريخية معروفة وفى مكان جغرافى معروف، وكل من يسمع عنها أو يقرؤها يؤمن بأنها حدث وقع بالفعل ... ومعظم قصص الشعب المتضمنة فيها تنتمى إلى هذا النوع من الـهاجاداه. والـهاجاداه شائعة تقريباً فى كل قصص المقرا والأسفار التاريخية وأسفار الحكمة وفى الشعر المقرائى. وتنقسم الـهاجاداه فى المقرا إلى مجموعتين: مجموعة القصص حول الأباء الأولين فى سفر التكوين، ومجموعة قصص الأنبياء فى سفر الملوك. . وتقترب الـهاجاداه بصورة كبيرة للغاية من الأدب القصصى التاريخى وتستخدم دائماً لزيادة ثقة المجتمع فى الأحداث المقصوصة بها، وهو ما يجعلـها حلقة تربط بين التاريخ والأدب الخيالى وهو الأمر الذى جعل الكثيرين يتساءلون عن مدى حقيقة الأحداث التاريخية فى قصص الآباء بسفر التكوين وإلى أيهما تقترب الـهاجاداه، التاريخ أم الأدب الخيالى " (3).

ومن هنا يمكن القول بأن وصف " شاليف " لفرضيات الصهيونية، فى هذه الرواية، بأنها(أساطير)، إنما ينبع من حقيقة تشكك الكثيرين فى حقيقة الأحداث التاريخية الواردة فى التراث الدينى اليهودى، التى تعد فى نظر الكثير من نقاد العهد القديم جمعا من الأساطير. وبالتالى، فإن اعتماد الصهيونية على مثل هذه الأساطير أو غيرها من الأساطير

(1) أنظر: د. كمال الدين حسين: التراث الشعبى فى المسرح المصرى المعاصر، الدار المصرية اللبنانية للنشر، 1993(ص28:30)

(2) عيلى ياسيف: " سيبور هاعم هاعفرى، تولدوتاف، سوجاف، أومشمعوتاف " (قصة الشعب العبرى، تاريخه، جنسه، ومعانيه)، دار نشر جامعة بن جوريون، القدس، 1994، (ص16).

(3) نفس المرجع (ص22: 31).

الدنيوية الأخرى، التى تحدث عنها شاليف فى تلك الرواية، يمثل معول هدم لفرضيات الصهيونية التى روجت لـها على مدار عقود عديدة. ومن هذا المنطلق، يمكننا أن نشير إلى أن محاور نقد الصهيونية فى هذه الرواية، وتفنيد ادعاءاتها المبنية على أساطير، حسب رؤية شـاليف، ترتكز إلى القضايا التالية:

أولاً: أسطورة العودة إلى الطبيعية بعودة يهود الشتات:

" استندت الصهيونية، كما صيغت أساساً على أيدى زعمائها، على مجموعة من المبادئ الأساسية، كان منها، أن الشعب اليهودى عليه أن يتجمع مرة أخرى فى أراض خاصة به وأن المكان المناسب لذلك هو وطنه التاريخى القديم (أرض إسرائيل)، التى تكون فيها الشعب وفيها تكونت ثقافته. وأثبتت حقه القومى فى البلاد عن طريق تمسكه بها فى صلواته وفى عاداته على امتداد الأجيال منذ سبى منها بعد انتصار القوى التى غزته وقمعته، وفيها فقط يستطيع التحول إلى شعب (طبيعى) " (1).

" وقد حاولت الصهيونية تحليل الوضع اليهودى، وأشارت إلى عدم الطبيعية التى يعـيش بها اليهود، فهو يعيش " ضيفاً فى كل مكان، ويقيم كمواطن فى أى مكان، وجاءت النبوءة الصهيونية بهدف تغيير هذا الوضع وضرورة القضاء عليه وتحويل اليهود إلى (شعب مثل كل الشعوب) " (2).

ولكن الصهيونية بهذا الطرح، ناقضت ادعاء " الاختيارية " الخاصة باليهود، بمعنى أن " الاختيارية " و" الطبيعية " أمران لا يجتمعان لدى اليهود، وهو ما أكد عليه " يهوشواع " فى كتابه " بفضل الطبيعية " قائلاً: " من بين النويات الأولى التى تشكل هويتنا، المطالبة بأن نكون مختلفين وفريدين، ولنا خصوصيتنا، ومنعزلين عن أسرة الشعوب. . . وعلى هذا فإن مفهوم (أن نكون شعباً مثل كل الشعوب) هو مفهوم خاطئ بالنسبة لليهودى " (3).

إن الطبيعية التى سعت إليها الصهيونية بمعناها المجرد والبسيط، هى أن يعيش اليهود حياة سليمة مثل أى شعب، وتكمن هذه الحياة فى أن يكون لليهود أرض ولغة خاصة وهى المقومات الأساسية لأى شعب، ولكن ماذا لو كان الشتات هو طبيعة اختيارية تتغلغل فى أعماق النفس اليهودية ولا تفارقها، كما يقول يهوشواع. فى هذه الحالة، فإن الصهيونية

(1) بوعز عفرون : الحساب القومى، ترجمة ودراسة د. محمد محمود أبو غدير، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، العدد (2)، 1990، (ص 142).

(2) مناحم برينكر: "احارى هاتسيونوت" (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، 19ـمارس-1986 (ص22).

(3) أنظر: أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص53).

تحكم على نظريتها هذه بالفشل قبل أن تبدأ. وهو ما حدث بالفعل، فلم تنجح الصهيونية فى تجميع كل الشتات اليهودى داخل إسرائيل حتى الآن.

وقد عبر " شاليف " عن فشل الصهيونية فى تحقيق هذه النظرية ووصفها، فى روايته هذه، بالأسطورة. وجاء ذلك من خلال عدة مراحل مرت بها مجموعة من الرواد اليهود المهاجرين إلى أرض فلسطين وهم يحاولون بناء كيان يهودى جديد بالاستيطان فى فلسطين، ليصطدموا بالواقع المرير، ويدركوا الخديعة الصهيونية الكبرى، ويأسفوا على المجيء إلى أرض فلسطين، ليتغلغل الفشل والإحباط فى نفوسهم. ويمكن لنا أن نعرض لـهذا عبر الرواية فى المراحل التالية:

(1) مرحلة النجاح (جهود الآباء المؤسسين فى الاستيطان):

حاول شاليف أن يبين لنا، فى البداية، كيف صدق الآباء المؤسسون هذه الأسطورة – العودة إلى الطبيعية بعودة يهود الشتات إلى فلسطين ـ وبذلوا قصارى جهدهم من أجل تمهيد الأرض واستيطانها وتحقيق النبوءة الصهيونية بالعودة إلى الطبيعية. وقد جاء لنا بمجموعة من المهاجرين الروس، جيل الآباء، استقر بهم الحال فى إحدى القرى، وأخذوا على عاتقهم مسألة بناء كيان يهودى جديد فى فلسطين بدعوى الطبيعية. وبدأوا فى استزراع الأرض وتمهيدها فى جو من البدائية اللافتة للنظر، لاسيما أن هؤلاء كانوا يعيشون فى مجتمعات غربية متحضرة قبل الـهجرة، وإذا بنا نجد " شاليف " يزج بهم بسخرية فى مجتمع قروى بدائى، حيث يعيشون فى أكواخ ويستخدمون الدواب فى تنقلاتهم بين القرى وفى حرث الأرض.

وعلى أية حال، كان لـهؤلاء الرواد إسهاماتهم، فى بادئ الأمر، فى تعبيد الأرض وإصلاحها، وقبل بلوغ مرحلة الفشل والإحباط، حقق هؤلاء الرواد نجاحاً نسبياً فى استقطاب بعض المهاجرين والدعوة إلى الـهجرة، حيث يقول القاص على لسان " شيبريس " أحد الرواد الجدد المهاجرين إلى فلسطين:

" قال لنا شيبريس: أيها الأصدقاء، يجب أن نحج إلى فلسطين "[1].

وبعد الـهجرة عبأ المؤسسون الصهيونيون قدراتهم البدنية والمالية لخدمة الأرض وتعبيدها، وعاشوا فى أكواخ وخيام ثم انتقلـوا بعد ذلك للعيش فى أبنية مبنية من الطين اللبن:

" كان الكوخ الخاص بنا من الأشياء الأخيرة التى تبقت فى القرية. فعندما استوطن الآباء المؤسسون هذه الأرض، خصصوا ميزانية البناء الأولى لبناء

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص10).

الحظائر الخرسانية . . . وعاش الرواد فى خيم من القماش، وبعد ذلك فى أكواخ خشبية. ومرت سنوات إلى أن انتقلوا للعيش فى بيوت بيضاء "(1).

وهنا يشير شاليف إلى أفكار أهارون ديفيد جوردون الداعية إلى استغلال أرض فلسطين بزراعتها وتعبيدها، التى استخدم فيها شعارات مثل (دين العمل) و(العمل العبرى)، بدعوى أن (العودة إلى الطبيعية) وممارسة الزراعة والأعمال الشاقة، هى السبيل الوحيد الذى من شأنه أن يطهر اليهودى من هامشيته كشخصية تعمل فى التجارة والربا. وقد آمن بعض اليهود بهذه الأفكار وأخذتهم حمية استزراع الأرض والعمل اليدوى فى فلسطين كما فعل الجد " ميرقين " ممثل جيل الآباء فى الرواية.

كان الجد " ميرقين "، جد " باروخ" القاص، أكبر الآباء سناً وأكثرهم احتراماً بين الرواد، وكان من أبرز المهتمين بالأرض وزراعتها، فهو يضم فى الكوخ الذى يعيش فيه كتباً عن الزراعة والتشييد والبناء، وهو ما يبين مدى اقتناع الآباء المؤسسين بأفكار جوردون فكانوا حريصين على تعبيد الأرض وفلاحتها، فهى أقرب ما تكون إلى الطبيعية التى ينشدونها:

" قرر الجد البقاء فى الكوخ . . . الذى كان يتكون من حجرتين ومطبخ . . . وفى الحجرة الثانية كانت هناك مجموعة من الكتب، يوجد مثلها فى كل مدرسة ... مثل (كتاب الحشرات الزراعية للمزارع) ... وكتيبات عن (الحقل)، و(الفلاح) ... ونسخة من العهد القديم ذات غلاف أسود "(2).

وكان من بين هذه الكتب، ذكريات كتبها أصدقاء الجد، وهى كتب وطنية تدعو إلى الهجرة وتتحدث عن الأرض والوطن:

"وكانت هناك أيضاً سلسلة من كتب الذكريات كتبها أصدقاء الجد ومازلت أتذكر بعض الأسماء . . . مثل كتاب بعنوان (الطريق إلى الوطن)، وآخر بعنوان أرضى) "(3).

ونظم المؤسسون اليهود أنفسهم وقسموا المهاجرين إلى مجموعات عمل فى محاولة للاستفادة من الجموع اليهودية المهاجرة ؛ فيقول " باروخ " القاص:

" مشولام هو ابن تسرقين مندولينا الذى شكّل مع جدى وجدتى فيجا، واليعازر ليبرسون (مجموعة العمل فيجا). لقد كان مندولينا فلاحاً نشطاً، وموسيقاراً عظيماً "(4).

---

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص9).
(2) نفس المرجع
(3) نفس المرجع، (ص10).

ولم يكن اندفاع مجموعات العمل نحو البناء والاستيطان، إلا محاولة لتطبيق أفكار القادة الصهيونيين على أرض الواقع فى محاولة للتخلص من الوضع السابق والمرفوض. ويعلق بوعز عفرون على هذه المحاولات الأولى لاستيطان فلسطين بقولـه: "كان من الضرورى إيجاد أسطورة قومية جديدة، بل إيجاد صورة جديدة للإنسان تجئ على عكس النموذج القديم المعروف ... وعلى ذلك كان من الضرورى أيضاً تبنى الأسطورة الصهيونية الخاصة بالأمة الإقليمية التى سبيت من أراضيها وتسعى للعودة إليها وأن اليهودية الحقيقية والبعيدة عن تشوهات الشتات تقوم فوق هذه الأرض" (1).

ومن هنا حاول شاليف، بداية، أن يرسم صورة كاملة لـهؤلاء الرواد الذين اندفعوا نحو تصديق هذه الأسطورة وعملوا على تحقيقها رجالاً ونساء، فصور لنا المرأة ضمن طليعة هؤلاء الرواد وهى تعمل مثل الرجال، وتقودهم فى مجموعات عمل مثل " بسيا تسرقين " ، زوجة " تسرقين مندولينا " التى كان لـها دورها فى بناء القرية، وكان لـها إسهامها المالى الذى يدعـو للفخر، وهى تعد من الرواد المـؤسسين الذين بذلوا نشاطاً ملحوظاً فى الاستيطان ؛ حيث يطالعنا القاص فى الرواية قائلاً:

" كانت بسيا تسرقين أم مشولام نشيطة فى العمل، ذات أهمية، وقليلة الوجود فى المنزل، لقد احترم مشولام أمه ـ وتفاخر بإسهاماتها فى اقتصاد الحركة " (2).

لقد عمل الجميع بدافع تحقيق الأفكار والمبادئ الصهيونية، إيماناً بنبؤاتها، فاهتموا بها وبمطالبها:

" بحثوا بالصدفة لدى تمعنهم فى المبادئ، ضرورة الاهتمام بمطالب الـهجرة الجديدة عامة " (3).

وكانوا يبذلون كل جهدهم فى حفر الأرض وتمهيدها، " فريلوف " الحارس وزوجته " تونيا " ، وكذلك " بيناس " معلم القرية وزوجته " ليئة " ، ومعهم الجد " ميرقين " ، يعدون من المجموعات الأولى التى جاءت لحفر الأرض واستيطانها:

" كان هؤلاء هم المجموعة الأولى التى قامت بالتجول فى الأرض وحفرها. لقد جاءوا إلى الوادى، وأصبحوا الآباء المؤسسين للقرية " (4).

---

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص21).
(2) بوعز عفرون: الحساب القومى، مرجع سابق، (ص 320، 321).
(3) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص21).
(4) نفس المرجع، (ص27).
(5) نفس المرجع (ص55).

وصـور " شاليف "، فى هذه الرواية، مدى اندفاع هؤلاء المهاجرين نحو الدأب والعمل، فكان العمل الجماعى وروح الجماعة التى شددت عليها الصهيونية، هو شعار هؤلاء المؤسسين، فكانوا يزرعون ويحصدون الأرض، وكان للنساء دورهن فى هذا العمل بالغناء وإحضار الطعام للفلاحين:

" كانوا فى الصيف يدرسون القمح معاً. فثمانية عشر فلاحاً يشّغلون آلة الدرس الكبيرة. . . أما النساء فيأتين إلى الجرن ومعهن فطائر يابسة ونبيذ مصنوع فى البيت، وفى الليل يجمعن أكوام القش الضخمة فى مجموعات، ويتجمعن بعد ذلك للغناء معاً "(1).

كما كان الأمل يراودهم دائماً مع كل نبتة تنضج ومع كل طفل يولد أو بقرة تلد:

" كانت كل نبتة تنضج فى أحواض الخضرة، وكل طفل وبقرة يولدون، مصدراً للأمان والأمل "(2).

ويواصل " شالبف" وصفه لـهؤلاء الآباء ومجهوداتهم الكبيرة فى الاستيطان، حيث يواصل الجد " ميرقين " والجدة " فيجا " العمل، على الرغم من كبر سنهما، فى زرع الأشجار والثمار، فقد كانوا شعلة حماس وأمل فى استيطان الأرض:

" ملأ الجد القرية بالأشجار المثيرة، التى بدأت تنمو بسرعة مع بعضها البعض "(3).

" والجدة. . . كانت تحلب البقر، وتطبخ، وتخيط، وتنظف "(4).

وهكذا، يبدو لنا أن " شاليف " قد حاول فى البداية أن يبين لنا كيف بذل هؤلاء المؤسسون جهوداً خارقة لتحقيق ما يسمى بالنبوءة الصهيونية، وكان الجد " ميرقين " أكثر هؤلاء الرواد احتراماً وأكثرهم عملاً، ومعه أدرك الجميع مغزى الفكرة الصهيونية:

" ولقد أدركنا جميعاً معنى العمل والفكرة، وذلك عندما لمس ميرقين شجرة مثمرة "(5).

وقد نجح " ميرقين " فى تشييد بستانه وجنى ثماره بعد مجهودات رائعة بذلـها مع ابنه " أبراهام " وحفيده " باروخ ":

" فى نفس هذا العام ازدهر بستان الجد بقوة فريدة. وطلب من حاييم مرجوليس أن يبنى عدداً من المناحل بين الأشجار المثمرة. وكان عسل هذا البستان يميل إلى الاحمرار، ولذيذ المذاق "(6).

---

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص67).
(2) نفس المرجع، (ص67).
(3) نفس المرجع، (ص64).
(4) نفس المرجع، (ص69).
(5) نفس المرجع، (ص70).

وكان هؤلاء الرواد يقومون بدور فاعل فى الاستيطان سعياً وراء تحقيق النبوءة والأمل، وكان لكل فرد منهم دور فى التوجيه والإرشاد والعمل، فنجد " بيناس " معلم القرية يقوم بدوره فى بث الحماس وشرح معنى الفكرة والعمل:

" لقد جلسنا بالفعل على أرضنا، كل واحد منا أسفل كرمته، وعرفنا معنى البيت، والأسرة، ورقصنا قليلاً، وغنينا قليلاً، وكرهنا قليلاً "(1).

ويأتى " دانيال ليبرسون "، من جيل الأبناء، ليقوم بدوره فى زراعة الأرض، فهو يعمل مرشداً زراعياً للمهاجرين:

" وجه ليبرسون كل طاقاته لفلاحة الأرض. وبعد ذلك توجه إلى مستوطنات المهاجرين وعرف بينهم كمرشد زراعى ماهر ومخلص "(2).

وهكذا، حقق الآباء المؤسسون بعض النجاحات الأولى فى بداية الاستيطان، فقد دفعهم حماس الطبيعة إلى العمل والزراعة، وهو ما أكد عليه أورن بقولـه: " لقد نجحت فى البداية، حقاً، العودة إلى الطبيعية بحراثة الأرض. فهاهم الرواد يجففون المستنقعات، ويشّيدون البساتين، ويتغلبون على الآفات الزراعية المختلفة ويتعلمون ركوب الدواب بين أشجار البساتين. لقد أوقفوا وحشية الطبيعة، وروّضوا قواها الجبارة وأخضعوها لثقافة الإنسان " (3).

ويمكن القول، إن هذا النجاح الذى عبر عنه شاليف فى الرواية، كان محل خلاف حقيقى بين بعض القادة الصهيونيين، مثل حاييم وايزمان الذى انتقل هو نفسه بروحه وجسمه من الاغتراب عديم الـهدف فى البلدة اليهودية فى روسيا إلى جدية الإنجاز الذاتى والمهنى والسياسى. وقد وصف وايزمان هذا الانتقال بقولـه: " كان النزاع قائماً بين أولئك الذين آمنوا بأن أرض إسرائيل يمكن أن تبنى فقط بالطريق الصعب، وأن هذه الحرب المريرة والمستمرة فى مجال تجفيف المستنقعات وتمهيد الأرض البكر فى (أرض إسرائيل) تؤدى إلى بروز الدعوة إلى تعبئة القوى الخلاقة لدى شعب إسرائيل، وأن خلاص هذا الشعب يؤدى إلى فساد الشتات، وبين أولئك الذين تقبلوا وأرادوا العيش فى حياة تتسم دائماً بالمعجزة وتكون مرهونة بها "(4).

---

(1) نفس المرجع، (ص112).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص75).
(3) نفس المرجع، (ص311).
(4) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص74).
(5) بوعز عفرون : الحساب القومى، مرجع سابق، (ص 340).

كما كان للرواد دورهم فى محاولة العودة إلى الطبيعية، وتحقيق بعض الأهداف من تلك العودة، وجاء لنا " شاليف " بتلك الأهداف التى أراد أن يحققها رواد تلك القرية على لسان " بانيا ليبرسون " والجد " ميرقين " :

" كان هدفنا هو خلق طائفة من العاملين، ليرتزقوا من عمل أيديهم دون استغلال. . . "

" وكان يجب أن يكون طريقنا من خلال مزج الواقعية بالمثالية " .

" وتقوم المؤسسات العامة بدورها النفسى والاقتصادي للأسرة " (1) .

ويمكن القول كذلك، إن مرحلة النجاح التى كانت تكمن فى جهود الآباء المؤسسين فى الاستيطان، والتى تحققت بعض الشيء، كانت مرحلة ضرورية فى الرواية، لتبين لنا الواقع البدائى الذى عاش فيه هؤلاء اليهود بعد هجرتهم إلى فلسطين، ومحاولاتهم لترويض قوى الطبيعة من ناحية، والفارق الاجتماعى والاقتصادى بين البلاد التى جاءوا منها بدعوى الطبيعية، و بين الحالة الاجتماعية والاقتصادية التى عاشوها فى فلسطين من ناحية أخرى، وبخاصة أن بعض الرواد، وكما جاء فى الرواية، كانوا يبحثون عن عمل فور مجيئهم إلى فلسطين. إنه نجاح لا يمكن أن يقارن بالحالة الاجتماعية والاقتصادية التى كان يعيشها اليهود فى بلاد الشتات، وبخاصة أن معظم شخصيات الرواية من مهاجرى روسيا، مما يعنى أن العودة إلى الطبيعية كلفتهم الكثير من المال والجهد ومقارنة بالحالة المعيشية التى كانوا يعيشونها فى تلك البلاد. وربما كان مقصد " شاليف " أن يبين لنا هذا عبر الرواية كتمهيد لمرحلة الفشل التى أصابت هؤلاء اليهود المهاجرين فيما بعد.

(2) مرحلة الفشل (تحطم المشروع الصهيونى) :

إذا كانت الصهيونية قد آمنت بأن " عودة الشعب إلى الأرض سوف تقوّمه من الانحراف عن الوضع الطبيعى لحياته فى الشتات، وأن الشتات أبعد الشعب عن الطبيعية ؛ وأطاح به بعيداً عن مواكبة الحياة السليمة، وأن فلسطين سوف تعيده إلى الطبيعة والحياة الطبيعية، فإن قصة الرواية ترفض تلك النظرية، وتؤكد أن الطبيعة التى كبحت جماح وحشيتها سوف تعود وتستهزئ برواد القرية وبنسلـهم. وإذا كانت الصهيونية قد صاغت نظرية ثالثة، تقول إن عودة الشعب اليهودى إلى فلسطين سوف تنهى مسألة الشتات تاريخياً، فإن قصة الرواية تقول، إن الشتات تغلب على الخلاص. وحول مشروع قبر الحفيد فى إرث الأسرة فسوف تستعيد الأرض دورها التاريخى الذى اشتهرت به فى حياة اليهود فى أثناء فترة الشتات، وستستخدم كمكان للمقبرة القومية. ومنذ (رواية روسية) لم يكتب أبداً فى سنوات الدولة

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص174).

عمل أدبى أعلن أن كل شىء فشل، وأن الصهيونية قد أخطأت من أساسها فى نظرياتها الأســاسية، وفطمت الأجيــال الســابقة علــى (أساطير) "[1].

وعلى هذا الأساس، تجلت مرحلة الفشل (تحطم المشروع الصهيونى)عبر الرواية فى المظاهر الآتية:

(أ) انهيار المشروع وتحول الأرض إلى خراب:

حقق الآباء المؤسسون فى المراحل الأولى من الاستيطان على أرض فلسطين نجاحاً ملحوظاً فى تشييد البساتين وزراعة الأرض وحرثها وجنى ثمارها. وفجأة، يطالعنا شاليف بانهيار المشروع الصهيونى كلـه، حيث تحطمت البساتين والزروع، ولفظت الأرض من عليها وألقت بسمومها فى وجه هؤلاء الرواد الذين عاشوا على أسـطورة الأرض التى تدر لبناً وعسلاً:

" وآنذاك اجتاح وباء الكوموز بساتين كاملة ودمرها، ويواصل ليبرسون الحديث قائلاً: فسدت الجذوع، واصفرت الأوراق، وماتت الأشجار "[2].

وامتد الخراب إلى حقول الفلاحين الذين أصيبوا باليأس، ولم تنجح محاولات الجد " ميرقين " فى السيطرة على هذا الوباء:

" أراد الجد أن يأخذ قطعة أرض موبوءة ليجرى عليها تجارب، وخضع لـه الفلاحون اليائسون، الذين كان معظمهم يخشون الرواد الصغار، واستجابوا لـه "[3].

ويتحول بستان الجد " ميرقين " هو الآخر إلى خراب، وتموت الأشجار، وينتشر الذباب والنمل فى البستان:

" انتشر النمل الأسود بجنون فى أرضية الفناء. وفى بستان الجد فسدت ثلاث شجرات من اللوز. . . وهاجم ذباب الماشية المتعنت فناء البستان "[4].

وفى محاولة لدرء الخطر الذى اجتاح هذه الأرض، يقتلع "باروخ" أحد الجذور اليابسة، وإذا بالأرض تلقى بسمومها من جرذان وروث وقوارض من الفئران فى وجهه:

" ورويداً رويداً انتفخت الأرض، وأخذ الجذر المائل للاصفرار فى التفت ؛ وأتى معه بـكتل كبيرة من هياكل الجرذان العظمية وروث البوم. . وانفتح جب

[1] يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص21).
[2] مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص170).
[3] نفس المرجع، (ص171).
[4] نفس المرجع، (ص260).

obeikandi.com

عميق فى الأرض، وتصاعد منه بخار لبنى سام، وحلق من داخلـه أزيز البعوض "(1).

ولعلـه من الملاحظ هنا، أن " شاليف " قد طالعنا فجأة، فى الحبكة الروائية، بخراب المشروع الصهيونى كلـه وتحطمه. وفى حقيقة الأمر، فهو يعبر بذلك عما روجت لـه الصهيونية بوجود علاقة خاصة بين أرض فلسطين واليهود ؛ فهو يشكك فى وجود تلك العلاقة ولا يؤمن بمثل تلك الفرضيات التى حاولت أن تروج لـها الصهيونية آنذاك، فها هى الأرض تلفظهم وتلقى بسمومها فى وجوههم، وهو ما يعنى أنهم غرباء ودخلاء عليها من ناحية، وأن الإحساس بالغربة لدى آباء اليهود فى فلسطين كان يلازمهم من ناحية أخرى.

والجدير بالذكر، أن الإحساس بالغربة لدى الصهيونيين الأوائل كان أمراً معروفاً تحدث عنه الرواد الصهيونيون فى كتاباتهم، وبخاصة جوردون الذى راح يتحدث عن جمال البلاد المقدسة وجمال الطبيعة فى فلسطين، ولكنه اعترف فى نفس الوقت بأنه كان ضيفاً فى هذه البلاد، حيث كتب يقول: " . . وبعد أن زرت الموشافوت (المستعمرات التعاونية) لم أشعر بما يجب أن يشعر به كل يهودى فاضل. . فهذا الجمال يبدو وكأنه غير طبيعى، بل يبدو أنه جمال صناعى. إننى أشعر بأننى ضيف فى مواجهة تلك الطبيعة الخاصة بأرض إسرائيل. إنها ليست الطبيعة الخاصة ببلاد روسيا التى تعودت عليها بشيء من الاقتراب النفسى "(2).

ويواصل " شاليف " تحطيم " أسطورة " الأرض والعودة إلى الطبيعية فى الرواية، فعندما يحاول " أورى " أحد أحفاد " ميرقين "، أن يقتلع جذور العرق سوس يكتشف فى دهشة تصاعد وانفجار سموم عتيقة تخرج من الحفرة التى كانت تقع فيها جذور العرق سوس:

" تصاعد صوت قوى من الحفرة. وبدأ المستنقع الذى أحاطه الآباء بثخانة الأرض وجذوع شجر الكينا يطفح أمامى، وبدأ يتنفس ويفور عندما لامسته أشعة الشمس "(3).

ويكرر شاليف الموقف ذاته فى مواضع عديدة فى الرواية، مؤكداً على لفظ الأرض لليهود حيث ظلت الأرض تلقى بسمومها فى وجه الرواد، ففى إحدى تجارب " مشولام " لإغراق الأرض والحقول بالماء تهتز الأرض وتلفظ بالقاذورات والدود والعظام فى وجوههم:

---

(1) نفس المرجع، (ص261).
(2) بوعز عفرون : الحساب القومى، مرجع سابق، (ص 324).
(3) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص261).

" اهتزت الأرض وتحركت من حولـه. وإذا بباطن الأرض يتقيأ وهو يحدث ذبذبات وقرقعات عالية وحلا أسود، وقاذورات وعظاماً وديدان سميكاً "[1].

ولم تكتف الأرض بذلك، بل إنها تثير الرعب والفزع فى قلب من يعبث بها، وهو ما حدث لـ " زيتونى " أحد الرواد المؤسسيين:

" كلما تعمق، زاد ضجيج الأرض، وعندما ضربت شفرة المعول قشرة المســتنقع المحاصر، تحت أقدام زيتونى تماماً، انفجرت من هناك أوراق البوص الحادة ومعها سحابة من البعوض المخيف أخذت تلدغ جلــده الرقـــيق، وتسلقت العلقات القاسية ساقيه الضعيفتين، وحاولت ديدان باهتة اللون أن تجره إلى الأعماق "[2].

وهكذا، أعلنت الأرض تمردها ضد الرواد، وكادت أن تبتلعهم، وتتحولت إلى خراب معلنة عصيانها لأية محاولات من قبل هؤلاء المهاجرين الجدد، الذين إذا كانوا قد حققوا نجاحاً بعض الشيء، فهو نجاح وقتى لا يكتب لـه الدوام، وهو ما جعل " بيناس " معلم القرية ومدرس الطبيعة، يعلن أن الاندماج مع الطبيعة والارتباط بالأرض ما هو إلا بهيمية ويعترف فى صحيفة القرية بأنهم أخطئوا فى التعليم والنبوءة والـهدف:

" لقد أخطأنا فى التعليم، وفى النبوءة، وفى الـهدف. وظهرنا أقرب إلى البهيمية وغصنا فى وحل الأرض حتى رقبتنا "[3].

ويعلق " يوسف أرون " على تلك الكلمات التى تفوه بها معلم القرية ومصدر حماس الرواد بقولـه: " هكذا توضح لنا هذه الكلمات ماهية الخطر: وهى أن الصهيـــونية طوحتنا من عدم الطبيعية إلى صورتها غير الطبيعــية المعكوسة. ونظرتيها بأنها ســوف تنجح فى إعادة الطبيعية لنا، وهو ما افتقدناه فى الشتات المستمر، هى فى الحقيقة نظرية باطلة، وقد أصدرت هذه الرواية المعادية للصهيونية حكمها عليها "[4].

(ب) الأرض "مقبرة للرواد":

لم يكن بإمكان الرواد الصهيونيين بعد تحطم المشروع الصهيونى وتحول البساتين والزرع والحقول إلى خراب، سوى تحويل الأرض إلى " مقبرة للرواد " لتعود للقيام بدور المقبرة

---

(1) نفس المرجع، (ص366).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص182).
(3) نفس المرجع، (ص253).
(4) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص76).

القومية (جلجول هامحيلوت)• التى كانت تقوم به فى أثناء فترة الشتات. وقد آثر " شاليف " عبر معظم صفحات الرواية، التأكيد على هذا من خلال الجد " ميرقين " الذى أمر حفيده " باروخ " بتحويل بستانه إلى مقبرة، معلناً فشل أسطورة العودة إلى الطبيعية بعودة يهود الشتات إلى فلسطين.

وهنا يعيد شاليف لفلسطين دورها الذى كانت تقوم به فلسطين على امتداد فترة الشتات اليهودى، من خلال عادة دينية كانت منتشرة بين اليهود فى خارج فلسطين، حيث كانوا يتوقون للدفن فى فلسطين لأسباب تتعلق بأن يوم الحساب سيكون فى فلسطين، وكانوا يلجأون عن طريق وسطاء من اليهود الذين يسافرون إلى فلسطين إلى شراء كمية من تراب فلسطين لتوضع تحت رءوسهم عند دفنهم خارجها لتقرب المسافة بينهم وبين فلسطين يوم الحساب.

ومن هنا تهافت رواد القرية لحجز مكان لـهم فى هذه المقبرة، ويستغل " باروخ " الموقف لصالحه؛ ليصبح غنياً، ويحصد أموالاً طائلة من وراء إدارة وبيع المقابر بالبستان:

" دفنت جدى وأصدقائه فى البستان، وأصبحت غنياً وتركت القرية "[1].

وهكذا، يتحول البستان إلى مقبرة يدفن فيها كل الرواد، ويمتلأ بشواهد القبور والحشرات والـهوام:

" خرب البستان وزرع بالرفات والقبور، واصطفت شواهد القبور على الجانبين ... وفى المنتصف كان يقع قبر جدى الأبيض "[2].

" شيدّ جدى بستانه الكبير فى نفس المكان الذى أصبح اليوم (مقبرة للرواد) "[3].

وفى حقيقة الأمر، لم يكن تحول بستان الجد إلى مقبرة يدفن فيها كل الرواد إلا تأكيدا من "شاليف" على أن الصهيونية أخطأت منذ البداية بترويج شعارات زائفة حول علاقة ما تتسم بالخصوصية بين هذه الأرض ويهود الشتات، وظهرت الحقيقة جلية عندما احتك هؤلاء المهاجرون بهذه الأرض التى شعروا بالمهانة وهم عليها. لقد رفض " شاليف " تلك العلاقة وأرجعها إلى حقيقتها، فهذه الأرض لم تكن يوماً إلا (مقبرة) لليهود فحسب.

ويعلق الناقد الإسرائيلى أورن على أسباب تحول بستان الجد إلى مقبرة جماعية للرواد الصهيونيين بقولـه: " إن تحويل الإرث الأسرى إلى (مقبرة للرواد) لم يكن فقط استدارة عجلة التاريخ إلى الوراء، بل بمثابة تصحيح للأخطاء التى وقع فيها ميرقين وأصدقاؤه. لقد

(•) جلجول هامحيلوت: عقيدة يهودية تعنى (البعث من تحت الأرض). و تؤمن بتجمع الموتى يوم القيامة فى الأرض المقدسة عن طريق الانفاق الأرضية ثم بعثهم أحياء.

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص15).

(2) نفس المرجع، (ص31).

(3) نفس المرجع، (ص65).

كانت الصهيونية من أساسها بمثابة خطأ ؛ ولذا فإن ميرقين يوصى حفيده بأن يدفنه فى البستان ؛ ليعود مرة أخرى مقبرة قومية " (□) .

وهكذا يؤكد شاليف على حقيقة مهمة، هى أن أرض فلسطين كانت ومازالت مقبرة لليهود، مشيراً إلى أن الصهيونية فشلت فى تحقيق الأمن لجموع اليهود على تلك الأرض المقدسة بعد أن أصبحت دائرة الحروب والمعارك العسكرية اليومية أمراً لا مناص منه. وهو بهذا يشير أيضاً إلى فشل التجربة الصهيونية مادامت لم تحقق غرضها الذى تعلقت به آمال اليهود المهاجرة إلى فلسطين، بل أصبحت عبأ يتوارثه الأجيال، ويدفعون ثمنه مع كل حرب يخوضونها. وقد عبر شاليف عن ذلك فى الرواية بتحول القصائد القديمة إلى ترنيمات، وانتهاء الشعارات الجوفاء، ليبقى فقط الصمت فى " مقبرة الرواد " :

" ساد الـهدوء التام هذا المكان. وتحولت الأغانى القديمة إلى ترنيمة هادئة، وصمتت أصداء الشعارات الكبيرة ... وفى سكون الليل كنت أسمع نحيب النساء وأنفاسا تتداخل فى الرياح، وكثيرا ما كنت أسمع انفجارا بائسا من باطن الأرض وقت أن تنتهى مرحلة انتفاخ بطن أحد المدفونين الجدد هنا " (□) .

لقد كان عدد الرواد الذين دفنوا فى هذه المقبرة كبيراً للغاية :

" لقد دفن فى مقبرتى 274 من المسنين والعجائز ... رواد، منجزون، ورأسماليون خائنون " (□) .

وإذا كانت الصهيونية قد حاولت فى طرحها التأكيد على أن فلسطين لم تعد لتقوم بالدور التقليدى فى حياة الشعب، ذلك الدور الذى كانت تقوم به فى سنوات الشتات، وهو دور المقبرة القومية، زاعمة أن الأرض لم تستوعب الموتى فقط، بل الأحياء أيضاً، وهو ما يؤكد عليه "بيناس" معلم أطفال القرية قائلاً: " جاء الموتى من الشتات إلى هنا ليدفنوا فى أرض بلادنا ... لكننا نحن الأطفال، هاجرنا إلى هذه البلاد؛ كى نحيا عليها وليس لنموت بها. لقد آمنوا بأن الدفن هنا سوف يطهرهم من خطاياهم ويقربهم إلى جنة عدن. ولكننا نحن لم نؤمن بالبعث من تحت الأرض ـ جلجول هاحيلوت ـ أو بتكفير الذنوب. فتكفير ذنوبنا يكمن فى تعبيد الأرض وليس فى حفر القبور. فجلجول هاحيلوت هو الحراثة " (□) .

إذا كانت الصهيونية قد حاولت التأكيد على هذا فى شعاراتها، فإن تحـول الأرض إلى " مقبرة للرواد " يحطم نظريتها، ويؤكد على أن المقبرة القومية عادت من جديد لتقوم

(□) يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص77).
(□) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص315).
(□) نفس المرجع، (ص196).
(□) نفس المرجع، (ص210).

بدورها، وأن الأرض لم تستوعب اليهود إلا أمواتا فقط. وهو أمر يؤكد عليه " شاليف " فى روايته من خلال هرع الرواد إلى " باروخ " صاحب المقبرة لحجز المقابر التى سيدفنون بها بعد موتهم. فها هو " تسرقين " أحد الرواد يؤكد على " باروخ " أن ينتقى لـه مكاناً بجوار مدفن الجد " ميرقين " :

" قال لى: فلتسمع يا " باروخ " ، لن يستمر هذا وقتاً طويلاً، وأنا أريد مكاناً جيداً لديك بجوار الجد " (1).

ويطلب " ليفين " كذلك أن يدفن فى البستان عندما شعر بأن نهايته تقترب :

" عندما شعر ليفين بأن نهايته قريبة، دعانى، واقترح علىّ مبلغاً كبيراً من المال رفضته على الفور، وطلب منى أن أدفنه فى مقبرتى بين الرواد " (2).

ويأتى " ليبرسون " ليطلب من "باروخ " أن يدفن زوجته " بانيا " فى مقبرته :

" أمرهم ليبرسون أن يأتوا بى إليه ... وأخبرنا أنه يريد أن يدفن بانيا فى مقبرة باروخ الجديدة " (3).

وبتأكيد شاليف على عودة عجلة التاريخ إلى الوراء إلى ما قبل قيام الصهيونية لتعود الأرض لتقوم بدورها كمقبرة لليهود، يتبين لنا جدية شاليف فى رفض أسطورة العودة إلى الطبيعية، فالطبيعية هنا، من وجهة نظر المؤلف، هى عودة الأرض للقيام بدورها قبل ظهور الصهيونية على مسرح الأحداث ؛ مما يعنى أنها أخطأت فى النبوءة والـهدف كما قال أحد أبطال الرواية. ذلك لأن الدفن فى فلسطين لـه قدسية خاصة لدى اليهود ؛ فيقال فى الفلكلور الدينى اليهودى فى التلمود، إن جثة الميت اليهودى خارج فلسطين تزحف تحت الأرض بعد دفنها حتى تصل إلى أرض فلسطين. وأمام هذه القدسية الخاصة بالدفن فى فلسطين، صور لنا شاليف جميع شخصيات الرواية وهى تتوق للدفن فى فلسطين، ولكن " باروخ " لم يدفن فى البستان إلا أعضاء الـهجـرة الثانية فقط من أصـــدقاء جده " ميرقين " . وربما كان الدفن لأعضاء الـهجرة الثانية فقط ؛ لأن أفرادها هم الذين أخذوا على عاتقهم مبدأ إرساء الاستيطان الصهيونى على أرض فلسطين، ونادوا بالأعمال الشاقة والعمل العبرى والاعتماد على الذات لتحقيق الخلاص لليهود وإبراز هويتهم اليهودية، ويذكر أن " بن جوريون " كان من أبناء هذه الموجة من الـهجرة. وربما قصد شاليف رواد هذه الـهجرة فقط لتحطيم ما ترتب على هجرتهم إلى فلسطين من إنجازات فى الاستيطان :

" كره مشولام تسرقين مقبرتى ؛ لأننى رفضت أن أدفن أمه فيها ... لقد دفنت فيها أصدقاء الجد، وأعضاء الـهجرة الثانية فقط. أما بسيا تسرقين فقد كانت من الـهجرة الثالثة " (4).

---

(1) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص303).
(2) نفس المرجع، (ص306).
(3) نفس المرجع، (ص320).

وعن سبب دفن رواد الـهجرة الثانية فقط فى البستان يقول " يوسف أرون " : "جاء لنا مئير شاليف بباروخ القاص لكى ينقل فقط ما سمعه من أحاديث لقدامى الوادى من أبناء الـهجرة الثانية . وبظهوره سعى شاليف ليؤكد على بعض من الأحاديث القوية التى سمعها بكلتا أذنيه من أفواه الرواد المسنين الذين التقى بهم فى أثناء الإعداد لكتابة هذه الرواية " (1) .

ويضيف قائلاً : " جاءت الرواية بحل باروخ شنهار فى المقبرة، حيث سيدفن النبوءة مع مؤسسيها، ويعيد الأرض إلى هدفها الرئيسى قبل أن يستفحل الـهوس النبوئى لدى أبناء الـهجرة الثانية، فى تحويلـها إلى أرض الخلاص " (2) .

وقد كان من بين رواد الـهجرة الثانية من عاد على أعقابه مكتفيا بإرسال المساعدات المالية إلى إخوانه اليهود فى فلسطين . ولكى يؤكد " شاليف " على استعادة الأرض لدورها كمقبرة قومية فى الشتات، فها هى " روزا مــونكين " تصــل من خارج البلاد فى نعش لتدفن فى البستان :

" بعثت روزا مونكين ردها، وبعد مرور ثلاثة أشهر ... تصل بنفسها داخل نعش متلألئ " (3) .

وتتوالى الطلبات على " باروخ " من خارج البلاد لحجز المقابر، فها هو " بوسكيلا " مدير المقبرة يتجول مع اثنين أرسلـهما أحد المصدرين اليهود الذين يعيشون فى نيويورك لشراء مدفن لـه فى هذه الأرض، تأكيداً من شاليف على تحول أرض فلسطين إلى مقبرة لأثرياء اليهود فى الخارج، وهو نفس الدور الذى كانت تقوم به فى الماضى :

" تجول بوسكيلا فى الممرات مع شابين أمريكيين، أبناء مصدر عطور من نيويورك ... أرسلـهما ليختارا لـه قبراً " (4) .

(ج) الشعور بالخديعة والإحباط لدى الرواد :

كان الشعور بالخديعة والإحباط لدى الرواد الصهيونيين، هو نتيجة طبيعية لما حدث لـهم على هذه الأرض، لاسيما وقد تبددت أحلامهم وانهار المشروع الصهيونى على أرض الميعاد، وتحولت البساتين إلى قبور، وانكشفت حقيقة العودة إلى الطبيعية، وشعر الآباء المؤسسون لأول وهلة بالخديعة التى ساقتهم إليها الصهيونية ؛ وتسلل الإحباط إلى

---

(1) نفس المرجع، (ص23).
(2) يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص70).
(3) نفس المرجع، (ص77).
(4) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص28ـ29).
(5) نفس المرجع، (ص186).

قلوبهم، واعترف الجميع بالفشل والخديعة، وترددت كلمات الشك والإحباط على ألسنتهم عبر معظم صفحات الرواية، كان أبرزها على سبيل المثال لا الحصر ما يلى :

يأس	(الرواية ص 46، 141)
تفكيك	(ص 67)
انحلال	(ص 67)
شك	(ص 89، 115، 177، 336)
أمل	(ص 105)
شك	(ص117، 341)
ألم	(ص 119)
خلاص	(ص 141)
أساطير	(ص 149، 344)
إحباط	(ص 153)
الكل باطل	(ص 163)
شك	(ص 177، 344)
فشل	(ص 179، 211، 258)
كارثة	(ص 180)
تبددت الآمال	(ص 260)

وقد آثر " شاليف " أن يتغلغل فى أعماق هؤلاء البائسين ؛ ليكشف لنا عن أحاسيس متخبطة يملؤها الخوف والفشل. لقد شعر " ريلوف " القائم بأعمال الحراسة للقرية بالفشل بعد موت " استير " " وبنيامين " ، من جراء قنبلة :

" وقف ريلوف هناك مكتئباً، وقد سحقه الإحساس بالفشل " (1).

ووصل الحال بهؤلاء الرواد إلى الاعتماد على عرافة عربية وساحر، ليؤكدا لهم على فشل النبوءة وتفاقم المشكلات أمام جيل الشباب، فيزداد إحساسهم بالإحباط والفشل :

" ... أما العرافة فكان من شأنها أن تلقى على مسامعنا بنبوءات لا تتمشى مع نبوءتنا. والساحر هو الآخر ... كان من المشكوك فيه أن يقدم حلولاً سهلة للمشكلات الجارية للشباب " (2).

(1) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص179).
(2) نفس المرجع، (ص185ـ186).

وشعر " أفرايم " بالعار والمذلة :

" أرخينا أنظارنا إلى الأرض بمذلة وخجل " (1) .

وفى شجار حاد لأحد الرواد مع زوجته يخرج لـها دفتراً أسود يقدمه فى غضب لـها، وقد سجل فيه كل خطايا الصهيونية :

قال بصوت خافت : " كل أخطاء مجموعة العمل، مسجلة هنا " (2) .

أما الخديعة فقد كان شعورها لدى الآباء المؤسسين قاسياً للغاية، فقد وجد " مشولام " معلم القرية "بيناس " ملقى على الأرض، وبجواره إحدى المجلات مفتوحة على عنوان "تاريخ فلسطين واستيطانها " ، فأخذ يتصفحها فى غضب ؛ ليصل بنا إلى مدى الخديعة التى وقع فيها الصهيونيون الأوائل :

" مستنقعات الوادى – الأسطورة والواقع، وبدأ يقرأ وإصبعه الذى يرتعد يتخطى السطور " (3) .

ويمضى "شاليف " ليبين لنا من خلال " مشولام " وهو يقرأ تلك المجلة، كيف خلقت، الأسطورة وزيفت الحقائق، والأسباب التى أدت إلى ذلك :

" لدواع تعليمية وســـياسية أغمضوا عيونهم عن دلائل المستنقع، وعن الحمى والموت فى وادى يزرعئيل، وحوّلوا كل هذا إلى أسطورة. فتسع وتسعون فى المائة من هذه الأراضى لم تكن بها مستنقعات " (4) .

ويواصل " مشولام " قراءته لـ "بيناس " معلم القرية :

" وهذا يتعارض مع الصورة التى جاءت بها المصادر التى خلقت أسطورة مستنقعات الوادى " (5) .

ويغضب كل من " مشولام " و " بيناس " ، ويصف الاثنان القائمين على الصهيونية بالكذب والخداع، ويسخران من المستطلعين الذين جاءوا ليستطلـعوا الأرض قبل هجرتهم إليها :

" (لقد تزّينوا بقناع الكذب) و (كان صنيعهم كلـه خداع) ... (وضحكوا عليكم طوال هذه السنوات) ... (هؤلاء المخادعون يكتبون عن أبى أيضاً) (6) .

---

(1) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص188).
(2) نفس المرجع، (ص224).
(3) نفس المرجع، (ص288).
(4) نفس المرجع، (ص288).
(5) نفس المرجع، (ص288ـ289).
(6) نفس المرجع، (ص289).

وينظر " مشولام " إلى الصحف على أنها جزء من المؤامرة، أما " بيناس " معلم القرية، الذى أخذته فى البداية حماسة الاستيطان وظل يدفع الشباب نحوه، فيصف الأمر بالفضيحة:

" بصق مشولام بغضب على الصحف التى هى (جزء من المؤامرة)، ثم قال بيناس (يالـها من فضيحة)[1].

ولعل شاليف يشير هنا إلى ما روج لـه الإعلام والأدبيات الصهيونية خلال فترة الاستيطان الصهيونى فى فلسطين، حيث راح المفكرون الصهيونيون يكتبون فى الصحف عن أرض فلسطين والوطن القومى، وكان هناك من كتب عن جمال طبيعتها دون أن يزورها فى محاولة للفت أنظار اليهود إليها والتشجيع على الـهجرة. فإذا كانت تلك الكتابات أو المقالات حملت عناوين (الأرض الخلابة) و(الأرض التى تدر لبناً وعسلاً) وغير ذلك فإن شاليف يرفض ذلك ويصفه بالخداع فى مقال يعبر عن الاستياء والغضب كتبه " بيناس "، أحد شخصيات الرواية فى صحيفة القرية يمقت فيه المستطلعين اليهود، الذين جاءوا قبل مجيئهم وأقروا بصلاحية الأرض:

" وفى مقال تحت عنوان (أرض تأكل سكانها)، يصف بيناس هؤلاء الباحثين بألقاب مثل (المتشدقون)، و (المخادعون) "[2].

وهكذا بيّن لنا " شاليف " كيف خدع القائمون على الصهيونية المهاجرين اليهود، وكيف كانت قصتهم فى الواقع أسطورة، حتى انكشف شراكهم وخداعهم لـهؤلاء القادمين من الشتات، حيث يصف " ليبرسون " الرحلة كلـها – قصة الخديعة الكبرى – إلى هذه الأرض منذ البداية بأنها مأساوية وخاضعة للكذب والتزييف والأسطورة، وينتـــهى إلى أنه يكره هذا المكان[3].

وهكذا، " توقف مؤسسو القرية عن الإيمان بالنبوءة، وبرز إحباطهم تجاه الـهدف الذى عملوا من أجلـه فى بداية طريقهم. فإذا كانوا قد روضوا الطبيعة وحجّموا وحشيتها، فمنذ اللحظة التى يئسوا فيها من النبوءة وهم يتخلون عن كل ما حققوه من إنجازات. فها هو الجد ميرقين يتخلى عن بستانه ويأمر حفيده بتحويلـه إلى مقبرة. ويمتثل المعلم بيناس أمام الجميع بصفته المسئول الأول عن كل النصوص المتشبعة بالأمل، التى تحولت إلى نصوص مشبعة باليأس حول نبوءة الصهيونية. فقد أفسدت الأرض كل هذه الجهود وألقت بسمومها فى وجوه كل الرواد وأفسدت صنع الإنسان وجهوده "[4].

([1]) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص290).
([2]) نفس المرجع، (ص291).
([3]) نفس المرجع، (ص361: 365).
([4]) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت باروما هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص74ـ75).

(د) النهاية المأسوية للرواد:

وفى محاولة من " شاليف " لإكمال الصورة القاتمة التى ظهر عليها الآباء المؤسسون بعد تحطم مشروعهم الصهيونى، جاءت نهاية معظم رواد القرية مأساوية، فهناك من مات منتحراً، وهناك من مات من جراء قنبلة يدوية، وآخرون أصيبوا بالجنون وخارت قواهم حتى ماتوا بفعل اليأس والفشل والخديعة.

إن القاص نفسه يتم إنقاذه وعمره عامان، حيث ألقى العرب على والديه "بنيامين" واستير " قنبلة يدوية وهما فى منزلـهما ليلقيا حتفهما على الفور فى نهاية مأسوية، يذهب بعدها " باروخ " القاص ليعيش فى كنف جده " ميرقين " :

" . . فستان الزفاف، خطابات أفرايم لبنيامين – كل شىء احترق. ولم يبق سوى بكاء طفل يائس فى الظلام، فأضأنا المصابيح ووجدناك تزحف، شبه عار، على العشب " [1].

وتعلق يونا باحور على الموت الذى كان من نصيب معظم شخصيات الرواية بقولـها: " لقد سمح الكاتب لنفسه أن يقضى على استير وبنيامين على حد سواء، ومرة واحدة فى حدث مروع يهز القرية كلـها، ذات ليلة ؛ دون أن نسمع صوت ألم أو نحيبا من الألم، ودون دمعة رمزية واحدة. ففى (رواية روسية) يظهر الموت مثلما نجده فى أفلام الرعب، أو مثلما نجده فى لبنان وفيتنام وأفغانستان، وإسرائيل اليوم. وعلى الرغم من هذا، فإن هذه الرواية تفتقر إلى ألم حقيقى على الموتى " [2] ؛ ربما لأن الموت أصبح أمراً عادياً فى القرية، وربما لأن المؤلف لم يعبأ بهذا ؛ فهو يسرد القصص التى سمعها من رواد الـهجرة الثانية فحسب، وربما لأنه غير مشفق على هؤلاء الذين عاشوا على أسطورة أرض الميعاد التى يرفضها، فيمضى ليسرد لنا النهايات المأساوية لرواد القرية والمشروع الصهيونى، حيث يفقد " زيتونى " أحد اليهود الورعين، أسرته فجأة فى طوفان اجتاح البلاد:

" كان زيتونى إنساناً ورعاً من طبريا، فقد أسرته وبيته فى أحد الفيضانات ... وبعد الكارثة قص لحيته، وألقى بقبعته وطاليته فى المياه الساخنة التى قضت على حياته، وباع كتب التوراة التى حافظت عليها أسرته على مدار أجيال عديدة " [3].

([1]) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص179).

([2]) يونا باحور: " رشيموت عل هاسفروت " (انطباعات حول الأدب)، دار نشر يارون جولان، تل أبيب، 1993 (ص67ـ68).

([3]) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص181).

قد يكون تجرد زيتونى من تزمته الدينى بعد أن فقد كل شىء، هو محاولة من شاليف لدحض أسطورة المقرا التى اعتمدت عليها الصهيونية فى دفع جموع اليهود تجاه فلسطين بزعم العهد المقطوع بينهم وبين الرب، وبخاصة وقد باع زيتونى التوراة وقص لحيته، بعد أن أدرك تلك الأسطورة، لاسيما أن شاليف يرفض دائماً أساطير المقرا، وهو ما حدث بالفعل فى روايته (عيسو) التى دحض فيها أسطورة المقرا التى اعتمدت عليها الصهيونية فى توزيع الميراث بين (عيسو ويعقوب) كما سنتبين فيما بعد.

أما "بيناس" معلم القرية فيصاب بنزيف دموى فى المخ وينقل إلى عيادة القرية وتسوء حالته الصحية حتى يموت:

" أصيب بيناس بنزيف دموى فى المخ ... وشحب وجهه، وأخذ يتنفس بصعوبة ... كان يجلس على سريره ... أبيض مترهل ضعيف ... يأكل دون حراك، ويحاول طوال الوقت أن ينطق بكلمة " (1).

وفى نهاية مأساوية أخرى تموت زوجته " ليئة " متأثرة بمرض الحمى وفى أحشائها توءم

" وبعد عام ماتت زوجتى ليئة متأثرة بمرض الحمى. وهى تحمل فى أحشائها جنينين " (2).

وتتوالى النهايات المأساوية فى الرواية للرواد. فها هو " شلومو ليفين " يموت بعضة بغـل:

" . . وعلى شاهد قبره تلألأت تلك العبارة التى طلب تسجيلـها: (هنا دفن الطليعى) " شلومو ليفين "، رجل الـهجرة الثانية الذى قضى نحبه بعضة بغل " (3).

ويصاب " ليبرسون " هو الآخر بالعمى، وينزل مقيماً فى دار المسنين حتى مثواه الأخير:

" وقد وهن المسن بعماه، وأرسل إلى دار المسنين " (4).

ويموت " تسرقين " من شدة الألم والتعجب عما حدث لـه ولأعوانه الرواد، وقد تجرع مرارة الموت:

" لقد مات تسرقين من الضوضاء والصرخات، وعدم الرضا وبسبب المقاومة الـهائلة. وقد سمعته القرية كلـها وهو يصارع مرارة الموت " (5).

---

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص211).
(2) نفس المرجع، (ص291).
(3) نفس المرجع، (ص306ـ307).
(4) نفس المرجع، (ص320).
(5) نفس المرجع، (ص327).

وهكذا، يكاد لم يمت أحد من الرواية إلا وموته كان مأساوياً حتى الجد "ميرقين" عاش أيامه الأخيرة فى دار المسنين، واهن الجسم، يجلس معظم اليوم فى سريره أو على كرسى متحرك يتقيأ على الدوام ولا يتحرك إلا بمساعدة حفيده " باروخ " القاص(1). لقد اهتم " ليفين " بظاهرة الانتحار التى بدأت مع الأيام الأولى للـهجرة، وأخذ يتجول بين شواهد القبور فى المستوطنات والكيبوتسات ويلقى بكلمات قاسية، وكأن " شاليف " نفسه هو الذى كان يتجول:

" كان ليفين يتجول بين شواهد القبور، ويقـرأ تلك الكلمات المـريعة التى كتبت عليـها: (انتحر)، (لم يتحمل آلامه)، (ذاق الآمرّين)، (أنهى حياته)"(2).

وهكـذا، يمكن القول، إن " شاليف " كان موفقاً فى رسم صورة النهاية لـهؤلاء الرواد، وقد آثر أن يسجل لكل رائد من هؤلاء الرواد الصهيونيين قبل مماته كيف كانت نهايته المأساوية على قبره، وهو ما يتوافق تماماً مع نقد " شاليف " اللاذع للصهيونية. وأحياناً قد يشعر القارئ بأن " شاليف " كان موجودا بين هؤلاء الرواد، لاسيما أننا نشعر كثيراً بأنه هو " باروخ " القاص.

(3) النزوح عن إســـــرائيل:

إذا كانت الطبيعية هى نظرية صهيونية تعنى عودة الشتات اليهودى إلى فلسطين، فإن النزوح عن إسرائيل، التى تمثلـها القرية فى هذه الرواية، يعنى فشل الصهيونية فى تحقيق هذا المطمح، وتحطم أسطورة العودة إلى الطبيعية بمجرد عودة يهود الشتات إلى فلسطين، كما يرى شاليف.

إن هذه المرحلة تجئ بعد مرحلة الفشل التى أصابت المشروع بأكملـه، فلم يجد بعض الرواد ممن ظلوا على قيد الحياة مفرا من الموت المحقق والنجاة بأنفسهم إلا بالنزوح عن قرية " يزراعئيل "، تلك القرية التى شهدت نهايات مأساوية للرواد، وتجرع الجميع من كأس الألم والحسرة والخديعة الصهيونية التى عبر عنها " شاليف" ؛ ليؤكد لنا أن الشتات هو ظاهرة طبيعية تتغلغل فى النفس اليهودية، وليست حالة مؤقتة، وهو ما أكد عليه " يهوشواع " فى روايته (مولخو) وفى كتابه " بفضل الطبيعية " بقـولـه: " إن الشتات ظاهرة دائمة وطبيعية تقريباً بالنسبة لليهود ... وطبقاً لـهذا التطور فإن الشعب اليهودى هو شعب مشتت، وتلك هى قوته الوجودية ... وهو تصور ينظر إلى الشتات على أنه ظاهرة

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص243).
(2) نفس المرجع، (ص225).

شرعية وطبيعية. وبالتالي، يطل علينا أحياناً هذا السؤال الذى يقول: (لأجل من، فى الحقيقة، هذه الدولة؟) (1).

كما أن النزوح عن إسرائيل – القرية – فى الرواية، هو تعبير عن الوضع المتدهور الذى وجده هؤلاء النازحون الذين اصطدموا بالواقع الحقيقى، ولم يستطيعوا التأقلم معه أو العيش فيه. وربما هو تعبير من شاليف عن سأمه وكراهيته لدائرة الحروب المفرغة التى مازالت مستمرة منذ قيام الدولة وازدياد حدة المعارك العسكرية اليومية، والتى يفقد فيها العديد من الشباب الإسرائيلى سواء فى المعارك العسكرية أو فى المواجهات اليومية مع انتفاضة الفلسطينيين ومقاومتهم ضد جيش الاحتلال الإسرائيلى. وهو الأمر الذى زادت بسببه الـهجرة العكسية من إسرائيل، التى عبر عنها الكثير من الأدباء الإسرائيليين فى أعمالـهم الأدبية مثل عوز ويهوشواع. وكانت مسألة التأقلم واختلاف الطبيعة التى تعود عليها المهاجر اليهودى، بالإضافة إلى افتقاده للأمن فى (الوطن الآمن) التى وعدت به الصهيونية من أهم الأسباب التى جعلت التفكير فى النزوح عن إسرائيل أمراً مهماً، مثلما حدث فى الرواية مع " روزا مونكين " التى جاءت من أوكرانيا وسرعان ما هاجرت إلى أمريكا:

" هاجرت روزا مونكين من أوكرانيا، وعملت لمدة أسبوع فى بساتين اللوز، ثم وجدت أن هذا لا يتناسب مع بشرة يديها الناعمتين. فبدأت تثير العالم بخطابات لإنقاذها من هذه البلاد. وكان لـها أخ مهاجر إلى أمريكا فأرسل لـها تذكرة إلى هناك " (2).

إنها لم تكتف بالـهجرة، بل صرفت على دعايات معادية للصهيونية التى تسببت لـها فى ذلك:

" ونشرت على نفقتها الخاصة إعلانات معادية للصهيونية " (3).

ولحق بها " يوسف ميرقين " أخو الجد " يعقوب ميرقين " الذى يأس من الوضع وقرر بعدها السفر إلى أمريكا أيضاً:

" كنا ثلاثة أصدقاء. تسرقين مندولينا، واليعازر ليبرسون وأنا. أما أخى يوسف فقد مرض وأصيب باليأس، فنزح إلى أمريكا ولم يعد مرة أخرى " (4).

وقد فضل بعضهم الحرب على العيش فى هذه البلاد. حيث استقل " أفرايم " سفينة عسكرية ونزح إلى إسكتلندا:

---

(1) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص29).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص24).
(3) نفس المرجع، (ص25).
(4) نفس المرجع، (ص33).

" لقد استقر هو نفسه، فى ذلك الوقت على ظهر سـفينة عسكرية أبحرت إلى إسكتلندا " (1).

وتتوالى عمليات النزوح فى الرواية. ويأتى لنا " شاليف " بنازح آخر قرر بيع ممتلكاته وأبقاره وبستانه، ليذهب " أبرا هام " ومعه زوجته " رفقاه " تاركاً القرية والمشروع الصهيونى بأكملـه :

" باع أبراهام أبقاره وأجهزته ... ثم سافر مصطحباً زوجته... إلى خارج البلاد " (2).

ويحكى اثنان قصة أسرتهما فى هذه البلاد، حيث عملوا فى تجفيف الآبار ثلاثة أسابيع فقط، ولم يتحملوا الوضع فتركوا البلاد :

" عمل أبانا ثلاثة أسابيع، ولكن أمه مرضت، فاضطر إلى ترك البلاد " (3).

ويقول " بيناس " معلم القرية، إن تسعين فى المائة من رواد الـهجرة الثانية تركوا البلاد :

" ترك تسعون فى المائة من رجال الـهجرة الثانية البلاد " (4).

كان شاليف يستمع إلى قصص الاستيطان من بعض هؤلاء الرواد ممن ظلوا على قيد الحياة ؛ وهو ما ساعده كثيراً فى صياغة روايته بهذه الدقة والسخرية، والتى أكد فيها أن 90٪ من رواد هذه الـهجرة تركوا البلاد، وعلى هذا فلنا أن نتصور ما حدث للـ10٪ الآخرين من إحباط وفشل وموت مأساوى، وهو بذلك يشير إلى مدى الدمار الشامل الذى لحق بهؤلاء الرواد من ناحية، وسخريته وتأكيده على فشل الصهيونية فى محاولاتها للعودة إلى الطبيعية من ناحية أخرى، حتى إننا نجده يعبر فى سخرية لاذعة عن هذا النزوح بالحيوانات التى يضفى عليها صفات بشرية. لقد هاجرت الحيوانات أيضاً، حيث لم يستطع الحمار، هو الآخـر، العيش فى هذه الأرض ؛ فسافر هارباً إلى لندن ليلغى الملك هناك كل مقابلاته ويلتقى بـ" كاتشكا " الحمار العبرى اليهودى :

" كان لدينا حمار أطلقوا عليه كاتشكا ... وذات ليلة، وبينما كان الجميع نائمين ارتدى " كاتشكا " معطفاً على مؤخرته ... وسافر إلى لندن. وبينما كان الملك الإنجليزي يتناول وجبه إفطاره، جاء كاتشكا وطرق باب القصر بحافره. وعلى الفور دعاه الملك للدخول، وقدم لـه بيضة ... فحكى لـه كاتشكا عن القرية، فأمر

(1) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص124).
(2) نفس المرجع، (ص341ـ342).
(3) نفس المرجع، (ص186).
(4) نفس المرجع، (ص211).

الملك خادميه بإلغاء كل مقابلاته الأخرى ... فاليوم لدى حديث مع " كاتشكا، حمار عبرى من فلسطين "(1).

ومن الملاحظ أيضاً، أن شاليف يضفى دائماً، فى هذه الرواية، صفات بشـرية على الحيوانات، وكأن الحيوانات هى جزء من أبطال الرواية. وقد يرجع ذلك إلى سببين: الأول، هو أن " شاليف " كان يكتب قصصاً للأطفال، حيث كتب ثلاث قصص للأطفال، ولذا ظهر فى هذه الرواية تأثره بالكتابة للأطفال، التى دائما ما تستخدم فيها قصص عن حيوانات تتحدث وتقص الحكايات. ثانيهما، قد يكون "شاليف" قد لجأ إلى هذا الأسلوب من باب السخرية من الرواد الصهيونيين، الذين وضعهم فى مرتبة واحدة مع الحيوانات ؛ على اعتبار أنهم انساقوا وراء الادعاءات الصهيونية الزائفة وآمنوا بالأسطورة الصهيونية، وساروا وراءها، كقطيع الأغنام دون تفكير أو تمهل.

ومن هنا، يؤكد شاليف، مثلما أكد يهوشواع، على أن الشتات هو حقيقة قائمة فى النفس اليهودية يحملونها معهم أينما ذهبوا، فهم دائماً فى وضع الاستعداد للـهجرة حتى وإن كانت فى الاتجاه المضاد لوطنهم الذين حلموا به عقود من الزمن. وقد ذهب بوعز عفرون أيضاً فى كتابه (الحساب القومى) إلى أن هذه السمة التى تتغلغل فى أعماق النفس اليهودية تتعارض تماماً مع السمات القومية التى تحدثت عنها الصهيونية، حيث يقول: " لقد عاش يهود اليشوف• القديم فى أرض إسرائيل (فلسطين) ذاتها مثلما يعيش اليهود فى أية طائفة يهودية فى الشتات باعتبارهم من المعتمدين على البناء الاجتماعى العام وليس من حملة أعلامه. و(الشتات) إذاً ليس بالوضع القائم بطريق الصدفة، الذى يمكن التغلب عليه عن طريق القرار والعمل البشرى، بل هو وضع دينى حتمى مستمد من حقيقة كون اليهود (يهوداً). ويحمل اليهود الشتات معهم كل مكان يذهبون إليه، فهل هذه سمات قومية؟ "(2).

ثانياً: أسطورة الحق التاريخى لليهود فى فلسطين:

يرى شاليف فى روايته (رواية روسية) أن افتراض الصهيونية بأن هناك عهداً خاصاً بين الشعب اليهودى وأرض فلسطين، وهو ما يكسب اليهود حق الملكية الخاصة والأزلية على هذه الأرض، هو افتراض خاطئ وأسطورة خرافية تنفى حقوق العرب الفلسطينيين فى

(1) نفس المرجع، (ص55).
(•) اليشوف: اسم كان يطلق على التجمع اليهودى فى فلسطين قبل قيام دولة إسرائيل.
(2) بوعز عفرون: الحساب القومى، مرجع سابق، (ص 184).

ملكية هذه الأرض، ويرى أنه لا توجد حقوق مادية للشعب اليهودى فى فلسطين كما تزعم الصهيونية .

ويرى الأستاذ الدكتور رشاد الشامى أن " هذه الرواية حاولت أن تكشف عن حالة معاداة التاريخ التى عاشها اليهود فى علاقتهم بفلسطين، وهدم مؤلفها القاعدة الفكرية للصهيونية حول (أرض الميعاد) التى وكأنها ظلت عبر التاريخ خالية فى انتظارهم (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، وهو بذلك يفجر المعضلة التى تعترض حل النزاع الفلسطينى الإسرائيلى، ويعرض حقوق العرب على قدم المساواة مع حقوق اليهود عليها، ويقدم حل التقسيم باعتباره الحل السياسى الذى يقترح دولتين لكلا الشعبين على أرض فلسطين " [□] .

ويقول " يوسف أورن " عن ادعاء الحق التاريخى لليهود فى فلسطين : " تزعم هذه الرواية بأنه لا يوجد عهد سابق مثل هذا، ولا يوجد أساس للادعاء بأن هناك علاقة خاصة بين فلسطين وشعب واحد ؛ فالأرض فى الواقع مثل " الزانية " لا تحافظ على إخلاصها لرجل. فالعشاق يتبادلون عليها، وكل فرد يضاجعها هو صاحب الحقوق المؤقتة عليها. فلا توجد حقوق لليهود، الذين عادوا قبل مائة سنة تقريباً للتمسك بهذه الأرض أكثر مما لـهؤلاء الذين وطئوها قبلـهم. ولكن الإنسان القديم فقط هو الذى لـه حق الادعاء بالحقوق الأولية عليها. إن الرواية التى ترفض نظرية الصهيونية، فى وجود علاقة فريدة بين اليهود وهذه الأرض، وتصفها بـ (الأسطورة) التى يجب تحطيمها، هى دون شك رواية معادية للصهيونية " [□] .

وتأتى معارضة أورن للتوجه الخاص بتحطيم هذه " الأسطورة " فى الرواية، من منطلق تأكيد " شاليف " على ذلك فى أحداث الرواية، مشيراً إلى أنه لا توجد حقوق تاريخية قاصرة على شعب بعينه فى هذه الأرض من ناحية، وعلى جذرية الوجود العربى الفلسطينى فيها من ناحية أخرى. وعلى هذا الأساس يمكن لنا أن نتبين معالجة "شاليف" لادعاء الحق التاريخى لليهود فى أرض فلسطين ورفض هذه "الأسطورة" الصهيونية من خلال طرحه للقضايا التالية :

(1) العلاقة بين الأرض والشعب :

يمثل لنا "شاليف" العلاقة بين الأرض والشعب بالعلاقة التى تجمع بين الرجل والمرأة فإذا كانت العلاقة بينهما شرعية، " فإن الزوج فقط هو الذى يستوعب الزوجة، ولكن إذا

(□) د. رشاد عبدالله الشامى : أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص 37).

(□) أنظر : يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص74).

تركها فلن يستطيع أن يطالب بحقوقه عليها، أما إذا اختارت غيره فقد انقطعت حقوق الزوج عليها، ومنذ اللحظة التى تمسكت فيها بغيره تنتقل السيطرة عليها إلى زوجها الجديد " (1).

أما إذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة غير شرعية، وتلك هى العلاقة التى يعنى بها شاليف بين الأرض والشعب فى الرواية، فإن هذه الأرض تخضع فقط لمن يضاجعها. ويرى شاليف أنه لا يمكن أن نتوقع فى علاقة مثل هذه إخلاصا من المرأة. فالأرض فى هذه الحالة مثل المرأة لا تحافظ على إخلاصها ؛ لأنه " لا توجد مثل هذه الأرض، ولا توجد مثل هذه المرأة " (الرواية ص 258).

وقد أكد "شاليف " على هذا فى تلك الرواية، وقدم أرض فلسطين على أنها امرأة خائنة للرجل اليهودى، وامتلأت صفحاتها بالزانيات، ويكاد لا توجد امـــرأة فى الـرواية إلا وكـانت زانـية، حيث كانت العاهـرة الأولى هى " شولاميت " حبيبة الصبا التى جمعتها قصة حب بـ " ميرقين " الجد، الذى ظل مرتبطا بها حتى بعد مرور خمسين عاماً ؛ والتى بسببها ترك روسيا قاصداً فلسطين، ولكن كل الرجال الذين ضاجعوها، أضاعوا حق الباكورة التى كانت لـه عليها ؛ فقد كانوا كثيرين :

" لقد ضاجعت كل الضباط ... وجنرالات عجائز من الجيش الأحمر " (2).

لذا فلا توجد حقوق مادية للشعب اليهودى على أرض فلسطين، فقد تناوب عليها واطئوها فى فترات مختلفة من التاريخ، ولا يستطيع أحد منهم أن يطالب بحقوق خاصة عليها فالقائمة طويلة بحيث لا يمكن القول بأن اليهود فقط هم القائمون عليها منذ البداية، فقد كان عليها :

" الكنعانيون، والأتراك، وأبو فصادة، واليهود، والرومان، والماعز الجبلى، والعرب وقطط المستنقعات، والأطفال الألمان، والأبقار الدمشقية، والجنود الإنجـــليز الذين تصارعوا من أجل غرس آثارهم فى الكتل الطينية المتفسخة " (3).

وهكذا يؤكد شاليف على أن ادعاء اليهود بأحقيتهم فى هذه الأرض دون غيرهم هو ادعاء باطل، حتى وإن كان هذا الادعاء موجوداً فإنه لا يزيد عن حق أى شعب أو قوم عاشوا على هذه الأرض، فقد عاش عليها شعوب عدة وأقوام كثيرة. ومما لاشك فيه أن تقديم أرض فلسطين على هذا النحو، يعد نفياً قاطعاً، من قبل شاليف لمفهوم العهد الذى

(1) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت " (القلم كبوق سياسى، عشر مقالات حول الرواية السياسية فى الأدب القصصى الإسرائيلى)، دارنشر ياحد، إسرائيل، 1992(ص59).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص259).
(3) نفس المرجع، (ص286).

يتشدق به الصهيونيون حتى الآن. كما أن وصف أرض فلسطين بالزانية فى هذه الرواية، يأتى فقط لكى يثبت أن اليهود ليسوا أول من وطئها، فهى لم تكن عذراء عندما وصلوا إليها. وهو ما أكد عليه الناقد الإسرائيلى أورن بقولـه: " لقد اهتمت الصهيونية بأسطورة الحق التاريخى لليهود فى الأرض، وفى وجود عهد خـــاص وأبدى بين الأرض والشعب اليهودى، بينما فى الحقيقة وجد أول إنسان ظهـــر عليها أنها أرض عذراء، وقد تخيل كل من وطئها والمذكورين فى القائمـــة، أن هذه الأرض هى أرض عذراء، ولكن هذه الأرض كانت فى حقيقة الأمر (زانية) تعيد المـــحاولة فى كل مرة، وتستجيب لكل من يريدها ولمن يتناوبون الاعتداء عليها وهى فى رضا تام " (1).

ويمكن القول، بأن شاليف تأثر بما ورد من نصوص فى أسفار الأنبياء تصف هذه الأرض بأنها زانية، حيث كانت ترتكب الفاحشة مع كل الشعوب التى وطئتها مثل المصريين" وزنيت مع جيرانك بنى مصر " (حزقيال 16: 26)، والأشوريين "وزنيت مع بنى أشور" (حزقيال 16: 28)، والكلدانيين " وكثرت زناك فى أرض كنعان إلى أرض الكلدانيين وبهذا أيضاً لم تشبعى " (حزقيال 16: 29). وفى الإصحاح الثانى والعشرين من سفر حزقيال يصف الرب القدس بأنها تضع أصنامها لتتنجس بها، " أيتها المدينة السافكة الدم فى وسطها ليأتى وقتها الصانعة أصناماً لنفسها لتتنجس بها " (حزقيال 22: 3)، " القريبة إليك والبعيدة عنك يسخرون منك يا نجسة الاسم يا كثيرة الشغب (حزقيال 12: 5). وفى سفر صفنيا كذلك" ويل للمتمردة المنجسة المدينة الجائرة" (صفنيا 3: 1). وفى مراثى إرميا " بسطت صهيون يديها. لا معزى لـها. أمر الرب على يعقوب أن يكون مضايقوه حواليه. صارت أورشليم نجسة بينهم " (مراثى إرميا 1: 17).

وللتأكيد على هذا، صور لنا " شاليف " كل النساء فى الرواية زانيات يخنّ أزواجهن مع الآخرين. فقد كانت " تونيا " زوجة " ريلوف " تخون زوجها مع " مرجوليس " :

" كانت " تونيا" تقضى وقتها مع "مرجوليس" بين المناحل فى البستان" (2).

وزوجة " يعقوبى " سكرتير القرية تخون زوجها مع " أورى " :

" صرخ العاشق الصغير قائلاً: إننى أنكح زوجة يعقوبى " (3).

وزوجة طبيب القرية تخون زوجها مع " أورى " أيضاً:

---

(1) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص60).

(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص194).

(3) نفس المرجع، (ص246).

" سمع "بيناس " والنساء ذلك الصراخ الذى يقول: " إننى أنكح زوجة الدكتور " (1).

وحفيدة " ريلوف " أيضاً يضاجعها أورى فى برج المياه الخاص بالقرية:

" إننى أنكح حفيدة ريلوف " (2).

وكن كل نساء القرية اليهوديات زانيات يتهامسن لبعضهن بعضا عن نزواتهن وانحرافاتهن:

" كانت هناك أحاديث فاجرة وصريحة للنساء، اللاتى اعترفن لبعضهن بعضا عن نزواتهن... حفيدات ريلوف وليبرسون، وزوجة شوكا وابنة جدعون النجار، وأم مرجوليس، وميخل نفسها، وزوجة الطبيب، وزوجة الطبيب البيطري، ... كلـهن عاهرات " (3).

وهكذا، يؤكد " شاليف " على عدم عذرية هذه الأرض بالنسبة لليهود بقولـه على لسان " بيناس " :

" لقد خدعتنا الأرض ... إنها لم تكن عذراء " (4).

وهكذا أيضاً، " شبه شاليف العلاقة بين الشعب والأرض بالعلاقة بين الرجل والمرأة وأن الأرض – الزوجة تصبح خائنة وتحتضن عشاقاً كثيرين. وبناء على هذا، فليس للشعب الإسرائيـلى حـقوق أفضـلية على تلك الأرض ؛ لأنه مجرد واحد من العشاق الذين تقلبوا فى عشق فلسطين " (5). وبالتـالى، " فإن الشعب اليهودى ليست لـه حقوق ملكية قاصرة عليه فى هذه الأرض. وليس هذا الأمر سوى أسطورة استعان بها الشعب اليهودى لتفيده هو فقط، واستعانت بها الصهيونية وأقرتها كرؤية أساسية من وجهة نظرها. ولكن من يدرك تماماً تاريخ فلسطين يعرف أن أصحاب هذه الأرض تناسوا مسيرة التاريخ، وكانت هذه الأرض تنتمى فى فترات مختلفة لمن استوطن فيها وتمسك بها. ولا يوجد أحد من أصحابها السابقين لـه الحق فى المطالبة بها كملكية مقصورة عليه فقط تحت مسمى الحقوق التاريخية " (6).

---

(1) نفس المرجع، (ص267).
(2) نفس المرجع، (ص252).
(3) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص251).
(4) نفس المرجع (ص287).
(5) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص24).
(6) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت " ، مرجع سابق، (ص59).

(2) جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين:

" كان تاريخ فلسطين القديم عربياً ومازال عربياً حتى الآن، مؤكداً على الحق العربى دون غيره فى هذه الأرض. وفى التاريخ القديم بالذات بدأ تاريخ فلسطين عربياً، وانتهى عربياً، والدعاوى اليهودية فى حقهم فى أرض فلسطين المستندة إلى يهودية فلسطين فى التاريخ القديم دعاوى ليس لـها سند من التاريخ العام لفلسطين، كما أن مسيرة التاريخ اليهودى القديم لا تؤكد هذا الادعاء اليهودى ؛ فالتاريخ السياسى لليهود يقدم عدداً من الأدلة والبراهين عن حق العربى فى أرض فلسطين فى التاريخ القديم، وهذه الأدلة تستمد من مسيرة التاريخ السياسى لليهود قبل ظهور الإسلام " (1).

علاوة على ذلك، فإن جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين " تستند إلى أن تاريخ فلسطين القديم بالذات بدأ عربياً من خلال الـهجرات العربية المتواصلة على المنطقة السورية من قلب شبه الجزيرة العربية، التى أدت إلى تكوين البنية السكانية الأساسية للمنطقة السورية وبخاصة فلسطين الواقعة على الحدود الشمالية للجزيرة العربية. فعاشوا فى وطنهم الجديد (كنعان) أكثر من ألفى عام قبل ظهور النبى موسى وأتباعه على مسرح الأحداث. وقد أخذ قوم موسى بعد وصولـهم إلى أرض كنعان لغة الكنعانيين وثقافتهم وحضارتهم وتقاليدهم. وهذه حقـيقـة تاريخية ثابتة أيدتها المكتشفات الأثرية الأخيرة وأخذ بها العلماء بالإجماع تقريباً " (2).

وحول المعلومات الأثرية الثابتة حول جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين، التى يتجاهلـها بعض المؤرخين، يؤكد كيث وايتلام فى كتابه (اختلاق إسرائيل القديمة) " على أن فلسطين القديمة تعاقبت عليها عدة حضارات، وعلى أن إسرائيل القديمة لم تكن إلا (خيطاً رفيعاً فى نسيج التاريخ الفلسطينى الغنى)، وبعد أن جرد الفلسطينيون من أرضهم فإن خطاب الدراسات التوراتية• متورط فى عملية تجريد الفلسطينيين من ماضيهم أيضاً، وذلك من خلال بحث هذه الدراسات المتواصل عن إسرائيل القديمة، وتكرارها لعدد من الادعاءات التى تربط الماضى بالحاضر، وتجاهلـها للمعلومات الأثرية الجديدة التى تعطى صوتا للتاريخ الفلسطينى ... حيث كان الشعب الفلسطينى موجوداً على أرض فلسطين

---

(1) د. محمـد خليفـة حسن: عروبة فلسطين فى التاريخ القديم، الندوة العالمية لشئون القدس، عمان، الأردن، (19ـ20 / 6/ 1990)، (ص 1).

(2) د. أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ، حقائق تاريخية تظهرها المكتشفات الأثرية، سلسلة الكتب الحديثة، العدد 41 وزارة الإعلام العراقية، بغداد، 1972، (ص 381).

(•) يخوض مؤلف هذا الكتاب صراعاً ضد مجموعة من الباحثين ينضمون إلى مايسمى بالمدرسة التوراتية أو الباحثين التوراتيين (BIBLICAL SCHOLARS).

منذ أقدم العصور. وقد أسفرت الكشوف بالفعل عن جوانب متعددة من التراث الثقافى والروحى الضخم الذى خلفته الشعوب العربية القديمة (السامية)، وبخاصة الكنعانية التى استقرت فى فلسطين مع مطلع العصر التاريخى. ولكن السلطات اليهودية المهيمنة الآن على الكشف الأثرى، تعمل على طمس معالم الحضارة العربية الكنعانية " (1).

ومن هنا، فإنه لا يمكن وضع الحقوق العربية فى أرض فلسطين على قدم المساواة مع الإدعاء اليهودى بالحق فيها. وإذا كان " شاليف " قد وضع الشعب العربى ضمن قائمة الشعوب التى توالت على أرض فلسطين، فقد أكد الكثير من الباحثين على جذرية الوجود العربى فى هذه الأرض، ولعل فشـــل الحمـــلات الصليبية وصمود عروبة فلسطين فى وجهها خير دليل على ذلك.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإننا أيضا لا نستطيع أن نضع الحق العربى فى فلسطين على قدم المساواة مع ادعاء اليهود بحقهم فيها ؛ " لأن اليهود ظهروا غرباء دخلاء على فلسطين، وكل ما يملكون من المقومات الثقافية، ومن ضمنها اللغة، وكتابهم المقدس مقتبس فى أجزاء منه من الحضارتين الكنعانية والآرامية وهما من أصل عربى، وأن الأسماء التاريخية الواردة فى التوراة، سواء كانت أسماء شخصيات أو أسماء أماكن قديمة فى فلسطين هى من أصل كنعانى عربى ترجع إلى ما قبل ظهور العبرية بزمن بعيد " (2). ولعل ما يؤكد ذلك، أن التوراة كانت تتحدث دائماً عن أرض فلسطين كأرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، " ويعطيك بركة إبراهيم لك ولنسلك معك. لترث أرض غربتك " (تكوين 28 : 4)، " فصرف إسحاق يعقوب فذهب إلى فدان آرام إلى لابان بن بتوئيل الآرامى أخى رفقة أم يعقوب وعيسو " (تكوين 28 : 5). كما أن أبناء يعقوب الاثنى عشر ولدوا خارج فلسطين " هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا لـه فى فدان آرام " (تكوين 35 : 26). وبالتالى فإن الحق العربى فى فلسطين ينفى ادعاء اليهود بحقهم فيها ؛ وهو ما لم يستطع " شاليف " أن ينكره فى الرواية – سواء بقصد أوعن غير قصد – حيث أتى لنا بكثير من الدلائل التى تعبر عن جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين وحداثة الوجود اليهودى.

(1) أنظر: كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة – إسكات التاريخ الفلسطينى، ترجمة د. سحر الـهنيدى، مراجعة د. فؤاد زكريا، عالم المعرفة، الكويت، العدد 249، 1999، (ص 7، 8).
(2) أنظر: د. أحمد سوسة: العرب واليهود فى التاريخ، مرجع سابق، (ص 231).

إن " شاليف " يقدم العديـد من الأدلة فى روايته عن جذرية الوجود العربى فى فلسطين، ومن ذلك إشارته إلى النحاتين العرب الذين انبهر بهم " ليفين " المهاجر الجديد، وحاول تعلم فن النحت منهم، فى إشارة منه إلى جذرية الوجود العربى فى هذه الأرض:

" حـاول لفترة أن يتعلم فن النحت، حيث أدهشه النحاتون العرب بنظراتهم، حين كانوا يقشرون سطح الحجر وليكتشفوا طبيعته "(1).

وأشار " شاليف " كذلك إلى جذرية الوجود العربى عندما تحدث عن بعثة الأثريات الإنجليزية التى استعانت بعربى مسن وهى تنقب فى إحدى المغارات:

" أوضح لـهـم بيناس أنه يجب أن يسـتعين بنحات خبير متمرس فى التعرف على العروق الحجرية. فسافر إلى الناصرة وأتى من هناك بنحات عربى عجوز "(2).

وتتكرر محاولات شاليف، لإثبات أن الوجود العربى على هذه الأرض لم يكن وجوداً عرضياً، وذلك من خلال العربى المسن الذى تستعين به بعثة الأثريات فى مهمتها للتنقيب عن الأثار القديمة، وكأن شاليف ينقب بنفسه فى حقيقة الأسطورة التى تدعى الحق اليهودى فى هذه الأرض، محاولاً الكشف عن زيفها من خلال الكشف عن تلك المغارة القديمة التى وجد بها أثار أقدام وأجنحة طيور وشعوب عدة، وفيها أثبت أن اليهود كانوا مجرد اسم فى قائمة طويلة من أسماء الشعوب التى عاشت فى فلسطين. وما يعنينا فى هذا المقام، هو أن الاستعانة بعربى مسن لمساعدة بعثة للأثريات ما هو إلا دليل قاطع على جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين، وأن أى وجود لشعوب أو أقوام كان وجوداً مؤقتاً، وهو ما أكده " شاليف " على لسان " بيناس " حين كان يحكى عن هجرته إلى فلسطين، وإذا به هو ومن معه يلتقون بعربى عجوز فيسألونه عن الأرض وكيفية العيش فيها فيقول لـهم العربى:

" لكى تأتوا إلى هنا، سوف تخوضون حرباً لمدة أربعة أعوام ... وبعد أن تنقضى السنوات الأربع وتظلون على قيد الحياة، وقتها سوف تواصلون الحياة "(3).

ولعل هذه الحادثة تشير أيضاً إلى أن العرب هم فقط الذين يدركون طبيعة بلادهم وكيفية الحياة عليها، وأن اليهود جاءوا فوجدوا سكانها العرب الأصليين، ولم تكن أبداً خاوية مثلما روجت عنها الصهيونية بشعارها المشهور (أرض بلا شعب).

وللتأكيد على قدم الوجود العربى وحداثة الوجود اليهودى، كان " شاليف " لا يأتى بكلمة " عربى " فى الرواية إلا ويتبعها بكلمة " عجوز " :

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص48).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص284).
(3) نفس المرجع، (ص291).

ـ بعد ذلك التقينا بعربى عجوز[1]

ـ هنا فى ذلك المكان الذى التقى فيه " بيناس " بالعربى العجوز[2].

ـ عربى عجوز كان يعمل فى القرية القريبة [3]...

وبالإضافة إلى ذلك أورد " شاليف " ، فى الرواية، كلمات كثيرة من اللغة العربية الدارجة التى تعلمها اليهود المهاجرون إلى فلسطين من العرب الفلسطينيين، وهو ما يؤكد أن هذه الأرض كانت تمتلئ بسكانها العرب الفلسطينيين الذين أثروا فى اليهود القادمين وعلموهم لغتهم العربية ؛ وتلك بعض الكلمات العربية التى أتى بها " شاليف " على لسان الشخصيات اليهودية فى الرواية :

لصاحبك	(الرواية ص 150).
يلّلا، يلّلا	(ص 194).
يا ملعون	(ص 194).
حسين	(ص 194).
نمرود	(ص 206).
السلطان عبد الحميد	(ص 206).
اللـه ياخدهم	(ص 291).
رسّية (ضربة رأس)	(ص 308)
عكروت (مشاغب)	(ص 308).
هس (اصمت)	(ص 384).

وعلى عكس كثير من الأدباء الإسرائيليين، استخدم " شاليف " كلمة "فلسطينا" التى تعنى فلسطين فى الرواية (ص 80، 127)، وإن كان قد استخدم " ايرتس يسرائيل " فى أحيان كثيرة. والمعروف أن كلمة " ايرتس يسرائيل " تعنى فلسطين قبل قيام الدولة، ويستخدمها الكثير من الأدباء الإسرائيليين لطمس كلمة فلسطين ومحاولة تهويدها، وقد استخدم كلمة "يسرائيل " (إسرائيل) فى الفصل الأخير فقط، وهى تعنى إسرائيل بعد قيام الدولة، الثمرة الوحيدة للصهيونية، ولكنه ألحق بها كلمة " الفحشاء " فى امتعاض وسخرية كبيرة من ثمرة الصهيونية العطبة التى تمتلئ بالثقوب والفساد :

" لقد مورست الفحشاء مع إسرائيل. فحشاء عظيمة " [4].

---

(1) نفس المرجع، (ص291).
(2) نفس المرجع، (ص261).
(3) نفس المرجع، (ص366).
(4) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص387).

وبهذا، نجح شاليف إلى حد كبير فى محاولاته للتعبير عن رفضه لوجود علاقة تتسم بالخصوصية بين أرض فلسطين واليهود، رافضاً بذلك ادعاء الحق التاريخى لليهود فيها. وصاغ حبكة الرواية كلـها حول مجموعة من المهاجرين اليهود، رواد الـهجرة الثانية، التى تتحول علاقاتهم بهذه الأرض إلى جحيم، حيث لفظتهم من أول وهلة، وألقت بسمومها فى وجوههم وانتهت حياتهم بنهايات مأساوية، وتحولت إلى خراب بعد جهود كبيرة فى استصلاحها، ولم يدرك جمالـها وجمال طبيعتها سوى أصحابها، ممن عاشوا عليها منذ أقدم العصور. لاسيما وقد أصبحت هذه الأرض بالنسبة لـهؤلاء المهاجرين اليهود "مقبرة جماعية"، لتذكرهم بذلك الدور الذى كانت تقوم به فى الماضى تجاه يهود الشتات، كما أوضح شاليف فى الرواية.

ثالثاً: فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين:

تبارى الأدباء الإسرائيليون مع البدايات الأولى لقيام الدولة فى تقديم شخصية يهودية جديدة تتناقض تماماً مع شخصية " اليهودى الجيتوى "، ونتج عن هذا شخصية "الصبار"، تلك الشخصية التى هدفت إليها الصهيونية كجيل جديد للأحفاد، وحلمت بوجودها على مسرح الأحداث كجيل من الورثة يحمل اللواء بعد جيل المؤسسين.

وإذا كان الأدباء الإسرائيليون قد قدموا لنا هذه الشخصية فى معظم إنتاجاتهم الأدبية كنمط جديد للشخصية اليهودية، فإن " شاليف " قدمها لنا كشخصية خاوية ضعيفة النفس والعقل، حتى وإن كانت قوية البنية ومفتولة العضلات، وذلك فى سخرية لاذعة ونقد شديد اللـهجة لتلك الشخصية التى افتخر بها الأدباء الإسرائيليون على مدار عدة سنوات.

وقد عبر شاليف عن هذا الإخفاق الجديد للصهيونية من خلال " باروخ " القاص ممثل جيل الأحفاد فى الرواية، الذى أعده جده إعداداً جيداً حتى وصل وزنه إلى 110 كيلو جراماً وهو فى الخامسة عشرة من عمره، فقد كان يمسك بقرون البقرة ويطرحها أرضاً (الرواية، ص 13)، وكان شعره يملأ جسمه كلـه (الرواية، ص 13). ولكنه لم يكن شيئاً إلا " برميل قصص " (الرواية، ص 92) ؛ يخضع لمطلب جده " ميرقين " ويحول البستان إلى مقبرة، ولم يحافظ على مشروع المؤسسيين.

ولم يكتف " شاليف " " ببباروخ " كنمط للفشل الصهيونى الذريع فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين، بل كان جيل الأحفاد كلـه فى الرواية دليلاً قاطعاً على فشل الصهيونية وإخفاقها فى إعداد هذا الجيل، على الرغم مما بذلـه الآباء المؤسسون من جهود فى إعداد هذا الجيل.

ويمكن لنا أن نتبين هذا من خلال مرحلتين، عبر عنهما " شاليف " فى هذه الرواية على غرار (مرحلة النجاح) التى أعقبتها (مرحلة الفشل)، وهما :

(1) مرحلة الإعداد (جهود المؤسسين الصهيونيين فى إعداد ورثة لهم) :

بذل الرواد الصهيونيون جهوداً كبيرة فى محاولة تحقيق نبوءة الصهيونية بإعداد جيل من الورثة كى يواصل المشروع الصهيونى من بعدهم. فيطالعنا القاص بجهود " بيناس " فى إعداد هذا الجيل وهو يعلمهم مبادئ الزراعة والفلاحة :

" حوّلنا بيناس جميعاً إلى خبراء فى نمو القمح والنباتات الزراعية فقط "(1).

ويواصل المؤسسون الآباء جهودهم فى مرحلة الإعداد لهؤلاء الأطفال كجيل للمستقبل :

" ذهب الجد مع ليبرسون والجدة بانيا إلى البستان مع الأطفال، وقد علّم الجد الجميع كيف يقلّمون أشجار الخوخ الصغيرة لكى تنمو فى صورة كأس الزهرة "(2).

وكان " أبـراهام " أول طفل يولد فى القرية، فاحتفل به الرواد، ووضعوا فيه كل الآمال، وتبادلوه من يد ليد، وباركوه بقلوب مفعمة بالأمل والحياة :

" ولد عمى أبراهام، الابن البكر لجدى وجدتى فى القرية ... هذا الطفل ربطنا بعلاقات لا تنقطع أبداً ...، فأمسكنا به، وباركه كل فرد منا، بعضنا بصوت عال، وبعضنا الآخر من أعماق قلبه "(3).

كما كان " بيناس " معلم التلاميذ فى القرية يقوم بدوره، ويهتم بالتلاميذ اهتماماً بالغاً فيستمع إليهم، ويدرس لـهم تاريخ الحركة الصهيونية وأشعار الشاعـر العبرى " تشرنحوفسكى " :

" كـان من حين لآخر يدخل أحد الفصول دون أن يطرق الباب، ويقول لنا، (استمروا، استمروا) ... وكان بيناس يدرس لنا تاريخ الحركة فى وادى الأردن وكذلك أشعار تشرنحوفسكى "(4).

وكان يأخذهم أيضاً فى رحلات تعليمية تمتد لعدة أسابيع، ووصلت إحدى زياراته إلى "بيت شعاريم" الذى دفن فيه "يهودا هناسى" وفيه شدّد "بيناس" على أن اليهود جاءوا

---

(1) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص17).
(2) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص61).
(3) نفس المرجع، (ص57ـ58).
(4) نفس المرجع، (ص176ـ177).

من الشتات ليحيوا على هذا الأرض وليـــس ليدفنوا بها فى حديث لـه عن " جلـجول هامحيلوت " (بعث الموتى):

" جاء الموتى إلى هذا المكان من الشتات، ليدفنوا فى أراضي بلادنا ... ففى هذا المكان عاش ومات ربى يهودا هناسى ... ولكننا نحن أيها الأطفال ... هاجرنا إلى هذه البلاد لكى نحيا عليها لا لنموت فيها. لقد آمنوا بأن الدفن هنا سوف يكفر عن خطاياهم ويقربهم إلى جنة عدن. ولكننا نحن لا نؤمن ببعث الموتى (جلجول هامحيلوت) وبالتكفير عن الذنوب. فتكفير الذنوب يكمن فى تعبيد الأرض وليس فى حفر القبور " (1).

وهكذا، أخضع " بيناس " كل طاقاته لتعليم أبناء القرية مبادئ الصهيونية فى مرحلة من الإعداد الدقيق لتحقيق الآمال المرجوة. وكان كل أب فى القرية يقوم بدوره فى تعليم أبنائه على أمل إعداد جيل قادم يواصل المسيرة من بعدهم:

"رويداً رويداً، كان الأب يسند عملاً إلى الابن المختار ... ويدقق فى استجاباته وأفكاره. كملكة نحل تربى ملكاتها، هكذا أعدت القرية جيل الفلاحين القادم" (2).

وكان الجد يقوم بدوره فى تعليم أحفاده، جيل الورثة، فها هو " ميرقين " يعلم أحفاده " باروخ " و " أورى " القراءة والكتابة:

" لقد تعلمت أنا وأورى القراءة ونحن فى الخامسة من العمر... ففى الوقت الذى رسم فيه الجد كلمات على الورق، كان يجلس بجوارنا صامتاً. لم يعلمنا الجد بحروف منفصلة مثل " بيناس "، بل كان يبدأ مباشرة فى كتابة كلمات كاملة ومشكّلة " (3).

ولكن " باروخ " القاص، كان يلقى عناية فائقة من جده " ميرقين " بصفة خاصة، فقد وضع فيه الجد أملاً كبيراً، فكان يعتنى بمأكلـه وملبسه، ويطمأن عليه يومياً، ويحكى لـه قصصاً كثيرة ويعتنى بنظافته وطعامه:

" إننى أتذكر كيف كان يهتم باستحمامى فى كل مساء، مستخدماً ليفا خشنا وصابونا ... وعندما بلغت الثالثة من عمـــرى، كان يضـــع لى وجبتى على المـــائدة، ويخرج إلى العمل " (4).

(2) مرحلة الفشل (فشل الصهيونيين فى إعداد جيل من الورثة):

---

(1) نفس المرجع، (ص210).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص310).
(3) نفس المرجع، (ص197).
(4) نفس المرجع، (ص166ـ167).

يبدو أن مسألة إخفاق الصهيونية فى إعداد وريث من جيل الأحفاد باتت أمراً يتفق عليه معظم الأدباء الإسرائيليين، ويعبرون عنه فى كتاباتهم الأدبية، مثل يهوشواع فى روايته (مولخو) وعاموس عوز فى روايتيه (صندوق أسود) و (الحالة الثالثة). وفى (رواية روسية) كانت الأحداث متلاحقة لا تنبىء بقدوم جيل ناجح من الورثة، فكان الفشل أمراً طبيعياً فى ظل الانهيار التام الذى لحق بمشروع المؤسسين، وفى ظل مجموعة من القصص والأوهام التى ترددت على مسامع هؤلاء الأحفاد، والتى كانت كفيلة بخلق جيل يفتقر إلى الاعتماد على النفس، ويتصف بالسلبية والفشل الذى مثلـه " باروخ شنهار ".

" فليس من باب المصادفة أن يلقى دور التخليد ومجمل تاريخ القرية على حفيد أسرة ميرقين. ففى إعداد باروخ شنهار سواء النفسى أو البدنى، كان باروخ يمثل فشل النبوءة الصهيونية. لقد خصص جسده وشعره المبالغ فيهما لأجل إبراز الـهدوء النفسى المفقود لديه. فهو يتميز بقدرته على مسك قرون عجل ضخم حتى يلامس رأسـه بالأرض، وفى مقابل هذا يصعب عليه أن يعبر عن فكرة لديه أو حتى عن رغبة تراوده. كما أن سكوته فى مجتمع البشر يثير الشكوك لديه بكل بلادة و بلا شفافية. علاوة على أن نفسيته البائسة تصور لنا فشل الصهيونية " (1).

ولم يستطع " باروخ " أن يثنى جده عن رغبته فى تحويل البستان إلى مقبرة للرواد، فاندفع وحمل جده " ميرقين " ودفنه فى البسـتان، فهـو " حفيد مطيع وقوى " (الرواية، ص 327)، أطعمه جده ومعلمه "بيناس " بذكرياتهما وقصصهما، ونتج عن ذلك إنسان ليست به ثمة ثقة فى نفسه ؛ يعيش وحيداً منعزلاً، يتسم بالعدوانية والقسوة:

" إنك تبنى حول باروخ تلالاً من الخرابات. إننىلا أراه يلعب فى المدرسة، فى وقت الراحة...ولا يتحدث مع أحد، ويزحف على العشب بمفرده " (2).

ويقول " باروخ " واصفاً نفسه:

" أحيانا كنت أرفع عينى، فأرى نفسى محاطاً بدائرة صاخبة وساخرة ... وعندما كنت فى الفرقة الدراسية (ب) كسرت إصبعين لعوزى حفيد ريلوف " •(3).

ولم يذهب " باروخ " للجيش لأنه مصاب بعقد نفسية:

" فى تلك السنة أخبرونى بأننى معفى من الخدمة العسكرية لأننى يتيم. وفى القرية قالوا بأنهم وجدوا بى عيوبا نفسية " (4).

---

(1) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت باورمان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص70).

(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص217).

(•) يذكرنا هذا بشخصية " بوعز " فى رواية (صندوق اسود) لعاموس عوز، حيث اتسم بوعز بالقسوة والوحشية، وكان يضرب مدرسيه وأصدقاءه فى المدرسة ويحدث بهم جروحاً قطعية شديدة.

(3) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص217).

إنه يبكى حالـه ويدعو الرب أن يخلصه من آلامه ووحدانيته المخيفة :

" والآن أعيش بمفردى فى البيت، أسير بين الحوائط المتآكلة، أتألم من أشواقى لجدى الذى تركنـى، ووالدىّ الموتى، وعمى أفرايـم الـذى ذهـب دون عـودة، وأتوجه إلى نجوم السماء حتى تأتى وتخلصنى من آلامى ووحدتى "[1].

" لقد كانت سلبية (باروخ) النفسية هى الصفة الرئيسـية التى أثرت على عملـه كقاص. فكان نادراً ما يأخذ زمام المبادرة ويصيغ أفكاره، حيث كانت قصته مكونة من شهادات سمعها من أفواه الآخرين، الذين تعود على الاستماع إليهم، وأكثر من الاستشهاد بأقوالـهم. وبهذا الأسلوب حققت الرواية هدفها: فقد نصّلت (القاص) من مسئولية صياغة النصوص الصعبة والمتشبعة باليأس حول آمال نبوءة الرواد الصهيونيين، فهو يستشهد بأقوال الإحباط واليأس الخاصة بجده ومعلمه "[2].

وربما يكون باروخ يمثل شاليف نفسه ؛ فقد " أكد شاليف فى أحد اللقاءات الصحفية التى أجريت معه، أنه سمع بنفسه من الطلائعيين المسنين الذين التقى بهم خلال إعداده لـهذه الرواية نقداً حاداً وكلاماً لاذعاً عن الصهيونية، ولكنه اكتفى بما جاء به فى الرواية "[3].

ولم يكن " باروخ " فقط الذى بكى حالـه، فقد عاد " أفرايم " بعد أن اختفى دون أن يعرف طريقه أحد فى القرية، ولكنه عاد مشوها بلا شفتين، عينه مقلوعة، وهو ما أدى إلى عيشه وحيداً منعزلاً لا يخرج إلا فى الليل حتى لا يراه أحد:

" اقتلعت إحدى عينى عمى، واختفت شفتاه ... إن أفرايم الذى جذب جمالـه كل الفضوليين بالوادى كلـه ... تحول إلى وحش ... ودخل حجرته ولم يخرج منها ... إنه يقول، حتى الأبقار تخاف منى ... إننى أخرج فى الليل فقط "[4].

وهكذا، فعلت الصهيونية فى أبناء المؤسسيين. إن "أفرايم " عم " باروخ " لم يستطع تحمل الوضع المأساوى الذى عاش فيه آباؤه بعد تحطم مشروعهم، وفضل الاشتراك فى الحرب مع الإنجليز على العيش فى هذه الأرض، ليعود منها مشوهاً ويعيش وحيداً منعزلاً.

---

(1) نفس المرجع، (ص262).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص263).
(3) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص70).
(4) ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، دار نشر يديعوت احرونوت، القدس، 1995، (ص368).
(5) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص128: 130).

ويأتى " زيتونى " الذى فقد أسرته فى الطوفان لينضم إلى قائمة (الورثة الفاشلين) ليقص لحيته ويلقى بقبعته اليهودية وطاليته فى مياه الطوفان ويبيع كتب التوراة التى احتفظ بها والداه سنوات عديدة. ولم يكن ذلك فحسب، إنه يتحول إلى لص، يعول نفسه من السرقات، ويقوم بأعمال الدجل والشعوذة:

" كان زيتونى يعول نفسه من بعض السرقات الصغيرة، وأعمال الدجل التى تذكرها خلال فترة دراسته " (1).

أما "دانى " حفيد " ريلوف " فيعبر عن سخطه وغضبه بقصيدة يكتبها فى صحيفة القرية عبر فيها بسخرية عن " بيناس" معلم القرية، والحالة التى أصبح عليها معظم الرواد:

" دجاجة دجاجة / تأكل قمحا مجروشادجاجة مسكينة / صارت عجوزاً / سوف يذبحونها " (2).

إنه يتسم أيضاً بالحيرة والتردد ويثير دائما المشكلات:

" كان دانى ريلوف يتسم بعقل صغير، مثل عقل الحشرة، ويثير مشكلات غير متوقعة ... فكل صباح كان يغير رأيه ويأتى إلىّ متردداً ودامعاً " (3).

أما " أورى " فقد كان أكثر أحفاد "ميرقين " طيشاً وفوضوية ؛ فقد ذاع صيته فى القرية كلـها بمغامراته النسائية – كما رأينا من قبل – فلم يترك واحدة من نساء القرية إلا وضاجعها مطلقاً نداءه العابث من فوق برج المياه (إننى أضاجع فلانة)، حتى " نحماه " ابنة الحزّان لم تسلم منه فيضاجعها ويهرب، ويتوعده الجميع بالانتقام من جراء فعلته مع " نحماه " . ولكنه يعود، ويطلب الزواج منها، ويتوجه " باروخ " للذهاب إلى قرية المتدينين ليطلبها للزواج. ثم يأتى إليه ثلاثة حاخامات ويخبرونه بأنها " حبلى " ، ثم يأخذونه معهم ؛ ليتزوجها فى حفل هادئ، يحضره أبوه وأمه بعد عودتهما من الخارج، ويعود بها إلى القرية وهو سعيد، ليبدأ حياة جديدة بالعمل مع " باروخ " ، وتعمل " نحماه " معهما فى حظيرة " أبراهام " (4). وهى بداية جديدة لأورى لم تكن متوقعة فى نهاية الرواية، يقول عنها " يوسف أورن " : " ليس مصادفة أن يعود أورى فى نهاية الرواية إلى إرث الأســرة فى القـرية، الذى يعد أكثـر أحفـاد " ميرقين " فوضوية ؛ فهو يقيم بداية أخرى غير صهيونية فوق خراب ودمار الطليعية الصهيونية: بداية بلا أشواق (لتجديد العهد الخاص

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص181).
(2) نفس المرجع، (ص234).
(3) نفس المرجع، (ص378).
(4) نفس المرجع، (ص387: 390).

مع الأرض)، بداية بلا هدف (مثل هدف تحرير الشعب من نير الشتات وضمان مستقبل أفضل لـه فى وطنه)، بداية بلا نبوءة (مثل نبوءة ارتباط الشعب بأرضه للأبد) " [1].

أما يديا يتسحاقى فيرى" أن الأجيال المتعاقبة وأعمالـهم موصوفة فى الرواية بتشويه كبير. والوحيد الذى أنقذ من هذا التشوه هو (أورى) من أبناء الجيل الثالث، الذى يتحدى (الأسـطورة) بكل صورها، ويحقق الخيار الممنوح دائماً ببدايـة جديدة" [2].

ويعترف " بيناس " معلم القرية ومربى الأجيال بالخطأ فى إعداد هذا الجيل وفشلـهم كرواد فى تحقيق هدف الصهيونية المنشود في إعداد جيل من الورثة، وكيف يتأتى ذلك فى ظل مجموعة من الأساطير، وادعاءات باطلة، أدركها هؤلاء الأحفاد على أرض الواقع ؛ لتصبح دليلاً قاطعاً على الفشل والخراب والأوهام والقصص وزيف النبوءة، فيـقول فى صحيفة القرية :

" لقد أخطأنا فى التعليم، وفى النبوءة، وفى الـهدف. وظهرنا أقرب إلى البهيمية، وغصنا إلى الرقبة فى وحل الأرض " [3].

رابعاً : موقف " شاليف " الساخر من الصهيونية :

" كان شاليف يعرف جيداً كيف يكوّن (رواية جيدة)، وكيف يسيطر بصورة رائعة على التكنيك الخاص بتحطيم التسلسل الزمنى، طبقاً لحاجيات النص، ويعرف كيف يربط الحالات المختلفة بأسلوب واحد وموضوعى، وكيف يضع النهايات، وكيف يوظف الشخصيات المختلفة فى الأماكن الصحيحة للتسلسل المعقد للحبكة الممتدة لأعمال ثلاثة أجيال وثلاث أسر خلال عشرات السنين، وكذلك تركيز مادة غزيرة من خلال قاص واحد، لا هو قاص بطل ولا هو قاص شاهد فى إنتاج يحمل عنوانا تظاهريا (رواية روسية) " [4].

إذا كان شاليف يعرف كل هذا، فإنه يعرف أيضاً كيف يكون كاتباً ساخراً، لاسيما أنه لم يكتف بنقد النظريات الصهيونية القائمة منذ سنوات ودحضها ووصفها " بالأساطير "، بل تطرق إلى الشعارات الصهيونية، وعبر عنها فى الرواية فى سخرية لاذعة، وامتلأت صـفحات روايته بمواقف كوميدية ساخرة، عبرت عن سخطه الشديد على الصهيونية

---

(1) أنظر : يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت باروما هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص77).
(2) يديديا يتسحاقى : " ميتولوجيا شل هاميتوس " (ميثولوجيا الأسطورة)، مرجع سابق، (ص13).
(3) مئير شاليف : "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص253).
(4) يديديا يتسحاقى : " ميتولوجيا شل هاميتوس " (ميثولوجيا الأسطورة)، مرجع سابق، (ص13).

وشعاراتها، حيث عبر " شاليف " فى سخرية عن شعار الصهيونية الذى يقول " تلك الأرض التى تدر لبناً وعسلاً " على لسان " شولاميت " محبوبة الجد " ميرقين "، إذ كانت تقول:

" جميل يا ميرقين. فلتشرب ؛ فهل هذا صحى، يا ميرقين؟ هل اللبن صحى للغاية "(1).

ويمضى " شاليف " فى سخرية ليقول: إن اللبن طعام للقطط فقط، أما العسل فهو طعام ترفضه القطط ؛ وأحياناً فإن القطط ترفض اللبن أيضاً:

" كان القط هو الوحيد فى الوادى الذى رفض شرب اللبن "(2).

" إن اللبن الخاص بك ... عمل رائع دون شك، ولكننى أستطيع إنتاجه من ماكينة تدر لبناً وعسلاً "(3).

إنه لم يسخر من الشعارات الصهيونية فحسب، بل مضى " شاليف " ليسخر من المؤسسات الصهيونية التى تكونت قبل قيام الدولة لمساعدة يهود الشتات، من خلال حوار بين اثنين من يهود أمريكا جاءا إلى " بوسكيلا " مدير المقبرة لشراء قبر لأبيهما، ويتجادلان معه حول سعر القبر، ويعززان موقف أبيهما بأنه كان يعمل مع الجد " ميرقين " صاحب المقبرة، فيرد عليهما قائلاً " كل يسرائيل حفيريم "(4) فى إشارة إلى الشركة اليهودية " كياح " التى تأسست فى فرنسا عام 1860 لمساعدة يهود الشتات بعد الأحداث التى تعرضوا لـها فى فرنسا وبلاد أخرى.

ولم يترك " شاليف " أدباء فترة الإحياء القومى، بل وصفهم فى سخرية لاذعة بـ " أدباء القبـــور "(5) ؛ لأنهم كانوا شركاء فى صنع الأسطورة التى جاءت بهؤلاء الرواد إلى أرض الخراب والرماد، من خلال إنتاجاتهم الأدبية التى تحدثت عن لـهيب العودة إلى أرض الميعاد.

وفى موقف كوميدى ساخر يصف " شاليف " مجموعة من الرواد وهم يهاجمون الدجاج فى محاولة لجمعهم بالحظيرة، وهم يفرقون بين ذكور الدجاج والإناث:

---

(1) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص137).
(2) نفس المرجع، (ص145).
(3) نفس المرجع، (ص300).
(4) نفس المرجع، (ص187).
(5) نفس المرجع، (ص328).

" هوت الدجاجات فى منتصف الفناء، ورفضت القيام أو الذهاب إلى الحظيرة. فقام يوسى وأفراهام بركلـهن ... لأن الذكـــور الأقوياء كانوا ينقـرون جـلد الإناث محاولين القفز عليهن "(1).

ويأتى لنا " شاليف " بحوار طريف و ساخن بين " ريلوف " و ليبرسون " يتحدثان فيه عن الحمير التى تشرب البيرة، والدجاج الذى يشرب خمراً، وينهى تسرقين الحديث بينهما قائلاً:

" لم نأت إلى فلسطين لكى نسقى البهائم الخمر "(2).

وهكذا، كان " شاليف " ساخراً إلى أبعد الحدود فى معرض نقده الشديد للصهيونية، فقد صور هؤلاء الآباء المؤسسيين أحياناً وكأنهم جاءوا إلى فلسطين فى نزهة مع الحيوانات ووصل حد السخرية إلى أنه كان يضفى صفات بشرية على الحيوانات عبر صفحات الرواية كلـها، مساوياً الرواد الصهيونيين فى القرية بهم.

وكانت سخريته تشير إلى قدرته العالية فى صياغة الحبكة الدرامية، وهو ما لم يستطع إنكاره بعض النقاد الإسرائيليين الذين يشنون هجوماً عنيفاً ضد الرواية ؛ حيث " يتهم الناقد الإسرائيلى أورتسيون شاليف بالسطحية الثقافية، ولكنه يعترف بأنه نجح فى التغطية عليها بقدرته الفائقة على صياغة حبكة الرواية بأسلوب خيالى ساخر "(3).

" ولعل ما يدل على ذلك تلك الكلمات المستخدمة فى النص الروائى، التى تتحدث عن إقامة القرية بمجموعة من المصطلحات المقبولة فى التعامل مع الصهيونية، مثل مشروع، ووعد ونبوءة. وكذلك فإن القصة الفاشلة للأسرة وميراثها العائلى تفسر بدراسة منهجية مجموعة من الكلمات، التى يمكن من خلالـها قبول نقد شاليف الشديد للصهيونية: مثل ريبة، وإثارة، وشك "(4).

---

(1) نفس المرجع، (ص91).
(2) مئير شاليف: "رومان روسى " (رواية روسية)، رواية، مرجع سابق، (ص97).
(3) أورتسيون برتا: " هيفل " (هراء)، مجلة موزنايم، العدد 1، سبتمبر 1991، (ص97).
(4) أنظر: يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت باروما هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص70).